تشارلز تشرشل

جبل لبنان
عشر سنوات اقامة
١٨٤٢ - ١٨٥٢

دراسة لديانة وعادات وتقاليد اهل الجبل

شركة المطبوعات الشرقية
دار المروج
١٩٨٥

جبل لبنان

عشر سنوات إقامة ١٨٤٢ - ١٨٥٢

Mount Lebanon

A TEN YEARS' RESIDENCE

FROM 1842 TO 1852

DESCRIBING THE MANNERS, CUSTOMS, AND RELIGION
OF ITS INHABITANTS

WITH

A FULL & CORRECT ACCOUNT OF THE DRUSE RELIGION

AND CONTAINING

Historical Records of the Mountain Tribes

FROM

PERSONAL INTERCOURSE WITH THEIR CHIEFS AND OTHER AUTHENTIC
SOURCES

BY

COLONEL CHURCHILL

STAFF OFFICER ON THE BRITISH EXPEDITION TO SYRIA.

IN THREE VOLUMES

VOL. II

THIRD EDITION.

LONDON
SAUNDERS AND OTLEY, CONDUIT STREET.
1853

جبل لبنان
عشر سنوات إقامة ١٨٤٢ ـ ١٨٥٢

وصف عادات وتقاليد وديانات سكانه

مع

دراسة كاملة للديانة الدرزية

ويتضمن

نصوصاً تاريخية لقبائل الجبل

أتاحتها لي

اتصالات شخصية مع زعمائها ومصادر أخرى موثوقة

المؤلف

كولونيل تشرشل

رئيس البعثة الإنكليزية إلى سوريا

في ثلاثة مجلدات

المجلد الثاني

دار الحروج للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ ١٩٨٥

المقدمة

لا بد من تعريف القارىء بشخصية المؤلف ليعرف من هو الكاتب وما هي أهدافه من المجيء إلى بلادنا والكتابة عنا، وهذا ملخص عنه: إسمه، تشارلز هنري تشرشل، رتبته العسكرية كولونيل، وهو إنكليزي ومن عائلة عريقة عرفنا منها أكثر من شخصية واحدة.

كان مجيئه إلى لبنان في سنة ١٨٤٢ على رأس بعثة دبلوماسية في عهد الملكة فكتوريا، وفي الوقت الذي كانت فيه إنكلتره في أوج عظمتها، أمبراطورية عظمى لا تغيب الشمس عن مستعمراتها المنتشرة في هذا الكون. وفي وقت كان لبنان يواجه فيه تحركات لإشعال نار حرب أهلية، اشتمّ رائحتها الإنكليز في الوقت المناسب كغيرهم، أما لماذا يسارع إنكليزي إلى المجيء فلهذا أكثر من سبب، أولاً، إن لبنان هو في نظر الغربيين منذ أيام الحروب الصليبية الباب الغربي الذي منه يدخلون إلى الشرق (بينما كان في نظر الشرقيين حدود آسيا من الغرب)، ثانياً، ولأن لبنان في موقعه شرقي البحر المتوسط وعلى الطريق إلى الهند، درة التاج البريطاني، موقع لا يمكن تركه بلا رقيب إنكليزي، أكان من قريب أو بعيد، ثالثاً، ولأن لبنان، رغم صغره، فيه ستة عشر باباً تؤدي إلى الشرق، ويمكن الدخول من أي منها، وإنكلتره كانت ترغب في أن يكون لها على الأقل باب واحد لا ينازعها عليه منازع، رابعاً، ولأن لبنان بلد المتناقضات، وفي لغة اليوم، كوكتيل مبادىء وإيديولوجيات، يجد فيه كل متذوق ما يلائم ذوقه، خامساً، ولأن لبنان لا يملك ما يدافع به عن نفسه إلا ما تملكه حسناء كثير عشاقها.

وقد بقي هذا السياسي الذي جاء على رأس بعثة إنكليزية عشر سنوات، فبنى له بيتاً في قرية قريبة من عاليه إسمها بحوارة، لا يزال موجوداً إلى يومنا هذا، وتملك أرضاً زراعية، ولبس اللباس اللبناني، وتعلّم اللغة العربية، وأصبح لبنانياً في كل شيء إلا في أهدافه، ومبادئه، وتربيته، وتمكن من تفهم اللبنانيين تفهم من لا همّ له إلا الدراسة وكتابة التقارير وجمع المعلومات، وكان مصمماً على اختيار الباب الدرزي من الأبواب الستة عشر، فانكب على دراسة كل ما يتعلق بهم بدءاً بتعاليمهم الدينية ثم عاداتهم، وتقاليدهم، وأساليب معيشتهم، فلم يترك شاردة ولا واردة إلا وكتب عنها، كتب عن شيوخهم الزمنيين وعن مشايخهم العقلاء المتدينين، وكتب ما استطاع أن يعرفه عن تعاليمهم الدينية، كتب عن البيت الذي يسكنه الشيخ، ومما يتألف، وما يلزمه من المرتفقات كالميدان مثلاً، وكتب عن إسلوب معيشتهم في أفراحهم، وأتراحهم، وولائمهم، وأوقات فراغهم، وكتب عن حروبهم، وعن فرسانهم، وعن الخيول التي يقتنونها، وحتى عن اللباس وأسباب الزينة، جاعلاً من كتابه هذا صورة حية لزمان مضى ولن يعود، مما يمكّن القارىء من رؤية مدى ما حصل من تطور خلال قرن ونصف قرن في بلادنا؛ فكتابه درس في الأنتروبولوجيا.

ولم يكتف بدراسة ما عند الدروز، بل تطرق إلى ما عند سواهم من اللبنانيين والسوريين وعرب البادية، درس دراسة مستفيضة أيضاً عن المماليك الذين كانوا يحكمون لبنان في عهد التنوخيين، وهو هنا يعطينا وصفاً دقيقاً لتنظيمهم السياسي والمعيشي ورتبهم ومراتبهم وملابسهم.

ليس كتابه هذا «عشر سنوات إقامة في جبل لبنان» كتاباً في التاريخ أو في السياسة، بل هو وصف لما كان عليه لبنان في أيامه، أو حتى ما قبل أيامه، مما لا نعرفه اليوم، بعد أن تغربنا إلى حدّ ما، فتفرنس بعضنا، وتأمرك بعضنا، وتأنكلز، أو تتلين، البعض الآخر.

والقسم الأوفى من كتابه هو ما يتعلق بالأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير الذي لقب «بسلطان البر» وأعطي حكماً من حلب إلى البحر الميت.

إنه في كلامه عن فخر الدين الثاني ينفي عنه تهمتين:

الأولى: نفى إقامة علاقات بينه وبين إيطاليا أو أوروبا أو الفرنج، أو محاولاته لإقامة تحالفات مع دول أجنبية ضد الدولة التركية، بواقع أنه عرضت عليه عروض مغرية أثناء إقامته في توسكانا، أو في باليرمو، فرفضها جميعها، ثم عرف عنه أنه عندما عرقل الدوق الكبير أمر سفره، حاول، بل فضّل الإنتحار على العودة من المركب إلى توسكانا، إذ وضع في عنبر المركب برميلاً من البارود لهذه الغاية. وكذلك دلت المحادثات التي أجراها معه ممثلو الدوق ثم الدوق نفسه على حقيقة تمسكه بأصالته وبقوته وبدولته.

والثانية: نفي اعتناقه المسيحية، أو تساهله في أداء فروضه الدينية بواقع أنه كان يتذمر علناً من تتابع الولائم التي تقام لتكريمه معتذراً بأن اللحوم التي كانت تقدم له لم يشرف مسلم على ذبحها، ثم بيّن أن الدعوات المتعددة والمتلاحقة كانت تتعارض أوقاتها مع أوقات الصلاة المفروضة، كما وأنه كان يصطحب معه الشيخ ناصر الدين شيخ الإسلام، ولا يفارقه، وهذا كان شاهداً معه يوم أن عرض عليه فيليب الثالث ملك إسبانيا، بواسطة الدوق الكبير، ملكاً أكبر من ملكه في لبنان بشرط واحد، هو اعتناقه الدين المسيحي.

ولم يكن تعاطفه مع المسيحيين في لبنان ومع الفرنج الذين أقاموا لهم متاجر في المدن الساحلية، إلا لاعتباره أن لبنان هو لكل اللبنانيين مسيحيين ومسلمين. وبناء على ذلك رفع المحظورات عن المسيحيين حرصاً منه على عدم التمييز في المجال الوطني بين مذهب وآخر، فالدين لله والوطن للجميع. وهذا التساهل شمل الفرنج الذين كانوا يمارسون التجارة في المدن الساحلية، مع شعور عميق بالوفاء لأبي نادر الخازن الذي لا يقل وطنية عن سواه.

لقد أظهر تشرشل شخصية هذا الأمير فبيّن صفاء نيته عندما قبل أن يزوّج إبنته من إبن الأمير يوسف سيفا، وأظهره في حزمه عندما أقسم أن يبني الدير من حجر عكار وفعل، وفي تهذيبه وحسن مزاياه عندما كان يعامل أسيره الباشا المهزوم وكأنه ضيف مكرم، وفي جرأته وإقدامه عندما كان يقوم بنفسه بحفر

الخنادق، ويسير أمام جنوده سيفه في يده، وفي كرمه وإنسانيته عندما قدم لدمشق الجائعة ألفي حملاً من الحنطة، وفي بعد نظره عندما رمَّم القلاع وعبَّد الطرق وشجَّع الزراعة.

وقد تكلَّم عن التنوخيين ووصفهم بالعدالة والليونة والشجاعة، وحبهم نشر المعرفة وتعميم العلم. بل أغدق عليهم كل الصفات التي استحقوها، مبيِّناً ما كان من جهادهم ونضالهم في مقاومة الصليبيين وما كانوا عليه من الشجاعة في صدّ هجماتهم، وهو يختتم قوله عنهم بأنهم أعطوا إسمهم لهذه الجبال التي حكموها مدة لا تقل عن ٧٠٠ سنة فعرفت بجبال الدروز. وإنهم قبلوا تعاليم حمزة في بدء الدعوة ونشروها وكانوا سنداً لدعاتها ومعتنقيها.

وتكلم عن العثمانيين الأتراك فأسهب في الكلام عن نهجهم في الحكم، قاصداً بذلك أن يوضح حقيقة ما يفعله كل مستعمر، أولاً لحفظ التوازن بين مختلف الأحزاب والمذاهب، والثاني لإبعاد الخطر عن بيته وحصر المشاحنات والحروب في أرض لا يهمه من أمرها إلا ما فيها من خيرات تنمي دخله وتملأ خزائنه.

وتكلم عن الشرقيين ونزعتهم إلى الانقسام، إنقسامات لا أهداف لها، وتكلم عن البدو والبادية فوصف حياتهم وخيامهم وخيولهم وبرَّر رغبتهم في الإقامة في الصحراء بعيداً عن المدينة وتناقضاتها.

وتكلم عن الخيل الأصيلة وما لها من شأن ومن نفع، سواء عند البدو أو عند الحضر من شيوخ أو أمراء أو فرسان. وتكلم عن الأمراء والشيوخ وتقاليدهم وعن الزواج وكيف يتم وعن الموت وكيف يواجه، وتكلم عن الولائم والمال الحرام والحلال. وتكلم عن اللباس عند الرجل وعند المرأة خصوصاً لباس المماليك.

وتكلم عن الدروز مبيناً الأسباب التي جعلت منهم شعباً ذا شأن رغم قلة عددهم.

إنه كان يدرس الأرض والناس الذين يعيشون عليها ليعرف كيف يمكن الوصول إلى نفوس الناس وكيف يمكن الإفادة من موقع الأرض.

هذا هو الكتاب وهذا هو الكاتب وما كتبه، وهذه أهدافه، إنه غريب عنا لم يأت إلينا حباً بنا، ولكنه استطاع أن يرينا نواحي لا يمكننا أن نعرفها في مجتمعنا لأن عينه رأت ما لم تستطع أن تراه عيوننا.

فإذا قرأناه بإمعان للإستفادة لا لمجرد التسلية خرجنا منه بكثير من العبر... ولكل قارىء تحياتي.

المترجم: فندي الشعار

١٩٨٤/١٠/٢٢

الفصل الأول

التنوخيون واعتناقهم تعاليم حمزه ـ أساليب الدعاة ـ حصول الدروز على السلطة بعد ١٧١٣ ـ المقاطعجية، سهراتهم، ضيافتهم، علاقتهم مع بعضهم بعضاً الاحترام المتبادل ـ تربية الخيول الأصيلة ومبدأ المشاركة ـ الميدان ومواصفاته، لعب الجريد. وقوانين اللعبة ـ قصة علي العماد في مصر ـ مبدأ التوفير (القرش الأبيض لليوم الأسود).

اعتنقت القبيلة العربية الكبيرة « تنوخ » تعاليم حمزة كعقيدة، فكان أن تحقق بذلك للعقيدة البقاء والدوام، ولأتباعها التأييد والدعم. حصل ذلك في بدء الدعوة أثناء تولي إبن الحاكم الخلافة. وكان قد تعرض أتباع حمزة في مصر للإضطهاد والملاحقة إلى أن اضطروا إلى مغادرتها إلى بلاد الشام حيث كان التنوخيون. وهي ملاحقات لم يكن بالإمكان تلافيها حتى ولو وقف هذا الخليفة إلى جانبهم، فالمصير كان محتماً، ولو تأخر بعض الوقت. فالمحمدية، أي دين محمد (الإسلام) كانت قد اتخذت لها أرضية صلبة في مصر، ولم يبق أي احتمال في تعرضها، إلى نكسة ما، تجعلها تفسح الطريق لتعاليم مثل تعاليم حمزة. إذ أن بقاء هذه التعاليم كعقيدة لم يكن ممكناً في مجتمع يتطور ضمن مدن كبيرة طابعها انفتاح فكري. ويكفي أن نتصور وجود مدينة لا معابد فيها ولا صلوات جماعية، ولا احتفالات دينية تقام على أرضها، وهذا ما كان منتظراً أن تكون عليه الحال لو أن ديانة التوحيد لقيت قبولاً عاماً في مثل هذه الأماكن الآهلة بالسكان، كما هي عليه من بساطة، ولبعدها عن محاولات التمويه والسرية والإغراء.

هذا جرى في الوقت الذي كان فيه جبل لبنان، وهو القرن الخامس عشر، مسرحاً لنشر التعاليم السرية وعبادة المجهول. وفي الوقت الذي كانت مناطقه الرئيسية قد أصبحت مأهولة بالسكان ومعدة للزراعة من قبل القبائل العربية، تلك التي كانت قد تمكنت في فترة قرنين من الزمان، من جعلها موطناً دائماً لها. وكان زعماؤها قد أصبحوا من كبار الملاكين يقوم على خدمتهم أتباع لهم، وينظرون إليهم كحكام إقطاعيين، ومن المعقول أنَّ نهجهم في التعبّد كان شبيهاً بما نجده في أيامنا عند عرب الصحراء من البساطة غير متوافق مع المظاهر الدعائية، فلا جوامع ولا مآذن؛ وكان هؤلاء الشيوخ الحكام على درجة ما من الثقافة، كانوا يجمعون الكتب المنسوخة باليد، من هنا وهناك، وينكبون على قراءة محتوياتها وأحياناً حفظها غيباً، وكانت نسخ ما كتبه حمزة أو المقتنى بهاء الدين مفترضاً فيها أن تثير اهتمامهم وتشوقهم وتتسلط في النهاية على

مشاعرهم. فما يجب الإعتراف به أنه لم يكن في هذه التعاليم ما يرفضه أو يمجه العقل البشري.

إن نظرية عودة الإله «التجلي» كانت قد وجدت قبولاً لها عند الكثرة من بني الإنسان، وإن الأسلوب البلاغي الذي يعرض فيه حمزة هذا التمويه العجيب في التعاليم الأخرى كان يرمي إلى إضعاف قابلية القبول به كعقيدة عامة بينما فكرة وجود عنصر رفيع المستوى من المخلوقات يسند إليه تكوين دولة عالمية، سيان أكان عنصراً موحى إليه أو مبعوثاً لقيادة الإنسانية في توجهاتها الدينية لن تلاقي معارضة شديدة في تلك العقول التي اجتذبت مرة لتصديق ما هو غريب وخفي. إن مبدأ الحب الأخوي والخضوع لمشيئة الله في كل شيء والإخلاص بالإنقياد إلى ذلك الذي وقع عليه الإختيار في أن يكون عبد الله المختار، ووسيلة الإتصال بالخلق والرحمة بهم هو مبدأ أقرته جميع الديانات وعليه فلن يكون أمراً مستغرباً، لذلك لم يجد المبشرون الذين انتدبهم حمزة للقيام بالدعوة، أية صعوبات في اجتذاب أتباع لتلك التعاليم عند قوم كان اتصالهم بالتعاليم المحمدية شكلياً.

وإذا نظرنا من زاوية أخرى لما كان يتخذ من دقة في اتخاذ الخطوات التي يتبعها دعاة هذا المذهب الجديد، وهي أساليب منبثقة عن أسس رئيسية للتبشير قائمة منذ أمد طويل في المشرق، فإننا نجد أنه لم يطرح أبداً ما يتنافى مع الشعور الديني عند أولئك الذين تعرض عليهم. كان هؤلاء الدعاة يظهرون أمام المدعوين، والقرآن في أيديهم، يعلنون أنهم يملكون مفاتيح ما ورد فيه من غموض. ولم تكن لتعرض تعاليم حمزة إلا بعد أن تكون العقول قد تهيأت لقبولها. إن ديانة لا تتطلب تأدية فروض إستعراضية ومظاهر زخرفية، بينما هي توجه إلى الإرتفاع بالفكر إلى الآفاق الروحية في الملأ الأعلى ذات الطابع الروحاني الخالص، كان مفترضاً بها أن تكون ذات تأثير قوي على شعب أبعده موقعه وعاداته عن الإتصال الدائم بأتباع دين النبي. وإن السلوك الذي سمح به حمزة لأتباعه، فيما يتعلق بالمبادىء الدينية الرئيسية في مسايرة واعتناق منحى السلطة الحاكمة، في الظاهر وكتمان التعاليم التي وضعها في الباطن، لا بد وأنها ساعدت في التمهيد لاعتناقها، دون تخوف خصوصاً لأولئك المستجيبين الجدد الذين أتيحت لهم فرصة الإمتناع عن إعلان معتقدهم الجديد والتعرض للإضطهاد.

فلو أن درزياً دخل إلى جامع ما، فليس هنالك ما يمنع من إظهار خشوعه وإتقان ممارسته للطقوس. أو لو طلب منه الإقرار بالمسيحية لما تردد في أن يقبل بالمعمودية. ومن الأمور المؤكدة أنه عندما أعلن إبراهيم باشا التجنيد الإجباري بصورة قسرية على الدروز، حاولت أعداد كبيرة منهم الفرار من الخدمة الإلزامية والدخول في المسيحية واستقبلتهم الكنيسة الكاثوليكية بحرارة، فجرت معموديتهم على يد الخوري وأصبحوا ماهرين في رسم إشارة الصليب. ومن المفروغ منه القول إنه عندما رفع الطلب بالتجنيد الإلزامي تعرضت الكنيسة لفقدان هؤلاء الأتباع. ثم هنالك عنصر ضمانة آخر تتميز به الطائفة الدرزية وهو أن كل محاولة لقبول أتباع جدد، ممنوعة منعاً باتاً، بل زيادة على ذلك فليس من فرصة لقبول أتباع جدد. وهكذا فالمرونة التي تسمح للدرزي بقبول الديانة القائمة في المكان الذي يعيش فيه، مهما كان نوعها، وتلك القناعة والاعتداد الذاتي بما هم عليه من معتقدات يجعلانهم يحجمون عن السماح بزيادة عددهم عن طريقة التبشير. وتلك السرية التي يتمسكون بها بالحفاظ على حقيقة معتقدهم هذه المميزات الثلاث، ونقولها بكل تأكيد ووضوح مكنتهم من إثبات وجودهم لفترة تزيد على ثمانية قرون.

وبعد القضاء على العائلة الحاكمة تنوخ وأثناء ظهور العائلتين المسلمتين المعنية والشهابية في لبنان، كوّن الدروز البارزون مجموعة من الملاكين ليس لها أي نفوذ سياسي، بينما بقي أولئك الفلاحون الذين كانوا يزرعون الأرض، أدروزاً كانوا أم مسيحيين تحت سلطتهم المباشرة وهؤلاء مع الأتباع الآخرين كانوا يشكلون مجموعة القائمين على الأرض، وكانوا كلهم عندما تدق طبول الحرب التي لم تكن تصمت، في كافة المقاطعات اللبنانية، على استعداد لتلبية النداء. ولم يتمكنوا حتى سنة ١٧١٣ من الحصول على ذلك المركز الذي مكنهم تدريجياً من الوصول إلى سلطة تتيح لهم التدخل في شؤون الإدارة العامة في الجبل، ولكن تلك الإدارة التي كانت تتخبّط في الفوضى وعدم الإنضباط بين الجبليين، ساعدت على وضع السلطة في أيديهم بصورة كاملة، ففي تلك السنة الحافلة بالأحداث تمكن الأمير حيدر الشهابي من إسقاط نفوذ الحزب اليمني في معركة عيندارا. وقد استغل الأمراء المسيحيون والمشايخ الدروز الذين ساعدوه في ذلك الإصطدام هذا الفوز بالنصر ليحصلوا من الأمير حيدر على موافقته بقبول اقتراح يؤول إلى إنقاذه من اضطرابات واستفزازات أخرى محتملة. من بنوده أن يجري تقسيم لبنان إلى مقاطعات تقوم كل من

العائلات النبيلة الحاكمة فيما يخصها بتحصيل الضريبة الأميرية، ودفعها إلى خزينة الدولة. ثم أضافوا على ذلك تعيين المبالغ المتوجبة على كل مقاطعة كل على حدة، على أن تكون ثابتة. وعلى هذا وافق الأمير وكتب إتفاقيات بينه وبين كل من هؤلاء المشايخ تنص على ذلك ومن هنا نشأ اصطلاح كلمة مقاطعة فأصبحت دارجة الإستعمال عندما يشار إلى منطقة ما تقع تحت سلطة شيخ أو أمير، وأصبح لقب هؤلاء «مقاطعجية» أو الفريق الآخر في الإتفاقية. وهكذا فمذ أن وضعت في أيديهم صلاحية جباية الضرائب، أصبح لا لزوم للتأكيد أنهم باتوا يملكون السلطة على الشعب والنفوذ لدى الأمير إن لم نقل التسلّط عليه، وقد حصل بسبب ذلك مشايخ الدروز على نفوذ واسع، ولم يخامرهم أي ريب أو شك بأنهم سيتمكنون بما أصبح في أيديهم من موارد من تدبير شؤونهم الخاصة وفرض تطلعاتهم السياسية المتنامية.

وقد لاقى من خلف الأمير حيدر في الحكم أسباباً كثيرة جعلتهم ينتقدون إعطاء مثل هذه الصلاحيات التي وضعها سلفهم بين أيدي المقاطعجية، مما اقتضى الكثير من الشدة والحزم والذكاء السياسي وحسن الحظ والصرامة لدى الأمير بشير قبل أن يتمكن من وضع حد لمشايخ الدروز الذين كانوا يتطلعون إلى إحكام القبضة على كل جبل لبنان. لقد أبقت الدولة بين أيديهم سلطة جمع الضرائب والتمتع بالإمتيازات الإقطاعية. أما الشؤون الأخرى التي تؤدي إلى تحقيق أطماع سياسية أو مكائد، فقد عولجت بتعيين أحدهم حاكماً عليهم من قبل السلطان، على أن تكون سلطته مكفولة ومدعمة من قبل الدول الأوروبية بعلم منهم وقبول. وقد كانت النتائج أن توفرت لجبل لبنان كل أسباب الإزدهار والحرية والإطمئنان التي كان سكانه لعدة سنوات خلت، يفتقرون إليها.(*)

كان مبدأ تقسيم الممتلكات معروفاً لدى كل طبقات المجتمع اللبناني. فالذكور في المقاطعة هم في إمرة العائلة التي تحكم تلك المقاطعة. وكل شيخ، مع غض النظر عن عدد أفراد عائلته، عنده عدد من التابعين له. وكانت الثمانية بالمئة من الضريبة الأميرية التي

(★) وذلك قبل أن يحاول السلطان العثماني فرض التجنيد الإجباري على الدروز. إذ كان ذلك سبباً في اضطراب اللبنانيين.

تأخذها الدولة تقسم بينهم بالتساوي. وفي المجال السياسي كان أكثرهم نفوذاً ينتخب ليكون ممثلهم لدى الدولة.

أما مساكن هؤلاء المقاطعجية فهي على الغالب تتكون من مجمعات من المباني يمتلك الشيخ واحداً منها مؤلفة على الأقل من غرفتين، ضمن حدود إمكاناته، لسكناه وزوجه وعائلته، وكان المجتمع السكني هذا أقرب شيء إلى تكنة، أمام هذه التكنة، ميدان ومقعد خارجي للإستقبال (منزول) فيه يقضون أكثر وقتهم ويصرّفون أعمالهم مع الفلاحين والغرباء. كان الطابع العادي لكل بيت في الريف: الخيول، والمواشي، والمحصول الزراعي وما شاكل. وكانت هذه أخبارها مدار أحاديثهم. ولكن إذا حدث وصول قادم أو زائر إفرنجي، فكانوا يتنقلون معه، إلى الحديث عن أوروبا والسؤال عن آخر الأخبار وأحدثها، إنهم كانوا قلقين من التفوق الفرنسي، وكانوا على إدراك تام لما يقوم به ذلك الشعب من المؤامرات والمخادعات التي يجوز لنا القول عنها، أنها كانت تستخدم من قبل عملائهم لمساندة الموارنة وتزويدهم بالمال والسلاح في الأحداث التي وقعت مؤخراً بينهم وبين الدروز، وفي نفس الوقت كانوا يظهرون تقديرهم وامتنانهم للإنكليز بإخلاص وصدق. ولم يكن ذلك دون سبب فكثيرون من الدروز أنقذهم الإنكليز من النفي وحتى من الموت، قام بذلك العملاء البريطانيون في أكثر من مناسبة. أما من الوجهة المالية فإن دخل العائلة الواحدة منهم كان يتراوح بين ثلاثين إلى ثلاثماية ليرة إنكليزية في السنة، وقلائل منهم كان يزيد دخلهم على ذلك. فقط الشيخ سعيد جنبلاط كان ينعم بدخل أرستقراطي يبلغ ثلاثة آلاف وخمسماية ليرة إنكليزية في العام الواحد. مواردهم هذه كان مصدرها ما تعطيه أملاكهم من غلال، بيد أن كثيرين منهم كانوا واقعين تحت ديون مستحقة.

كانت عندهم نزعة بتكريس كل شيء للإحتفاظ بمظهر لائق. فإن الواحد منهم يضحي حتى بقوت يومه من أجل إقتناء حصان أصيل.

وكان من النادر أن تجد حصاناً أصيلاً أو فرساً يمتلكها شخص واحد، فالمشاركة كانت أمراً مقرونا بالتوفيق. إن من كان يملك سهماً في فرس كان يملك سهماً في مواليدها، ولو فرضنا أن كانت فرس ما ملكاً لشخص واحد، وكان ثمنها ٥٠ ليرة فإن ولدت له مهراً وشاء مالكها بيع هذا المهر فسيكون ثمنه عند بلوغه ثلاثة أشهر من العمر

١٠ ليرات، وسيمنح سهماً بمقدار ليرة واحدة دون مقابل، ولو أنه شاء أن يكون له ربع المهر فسيكون عليه أن يدفع ليرة واحدة وربع الليرة، وهكذا تصبح حصته في هذا المهر تساوي لبرتين وربع الليرة. على أن يقوم على خدمته إلى أن يبلغ عمره أربع سنوات. ولو أن مالك الفرس إرتأى أن يبقى المهر بصورة دائمة عند شريكه، فهذا الشريك يكون له ربع المواليد وربع الحصان. ولو أنه أحب استرجاع الحصان لوجب تقدير قيمته الراهنة. وهكذا يجتمع المالكان في مزايدة حرة بينهما. وعندما يستقر السعر عند مبلغ ما بموافقة الطرف الآخر فالذي يرغب منهما في اقتناء المهر يدفع ما يخصه من الثمن. مثلاً لو تقرر أن الحصان يساوي ٦٠ ليرة فإن صاحب الفرس الأم يدفع لشريكه ١٥ ليرة أي الربع الذي هو حصته، أو لو أراد الشريك شراء المهر لتوجب عليه أن يدفع ٤٥ ليرة أو ثلاثة أرباع القيمة. وهكذا يكون الشريك قد نال ١٥ ليرة لقيامه بخدمة المهر مدة أربع سنوات. يظهر لأول وهلة أنها صفقة خاسرة بحق الشريك الذي خدم المهر. غير أنه هناك اعتباران يشيران إلى أن هذه الصفقة كانت إجمالاً رابحة، الاعتبار الأول، كان الشريك المربي يستعمل المهر بعد أن يبلغ سنتين من العمر، وكأنه ملك خالص له، وما ناله من ثمن كان عن خدمته إياه لمدة سنة وتسعة شهور، مع العلم أنه في المناطق الريفية في الجبال لا تكلف تغذية المهر إلا الشيء القليل، فهو يترك في معظم السنة في الحقول ليرعى العشب بلا تكلفة، ولا يزيد ثمن ما يقدم له من علف خلال شهور الشتاء الثلاثة أو الأربعة على ربع ليرة. وهكذا فإن الشريك الذي يتقاضى ١٥ ليرة ثمناً للربع يربح ٥ ليرات. ومن المؤكد أن مثل هذا الحساب هو ما يغري الأشخاص بتربية الخيول فهو مبلغ لا يستهان به لفلاح أو شيخ من ذوي الربح المحدود. وهو أيضاً لمالكه حساب مربح لأنه سيكون لديه جواد يساوي ثمنه ٦٠ ليرة يدفع منها لشريكه ١٥ ليرة فقط.

إنه من عادة مشايخ الدروز منذ قديم الزمان إقتناء الخيول الأصيلة، والتي هي من أصل صحراوي تعتبر أصلب عظاماً من الخيول العربية الصرفة وأضخم وأجمل تكويناً في الحافر والعرقوب. إن الأعداد المقتناة منها تناقصت في السنوات الأخيرة لكثرة ما يهدى منها لباشاوات الأتراك في بيروت وصيدا. كان العلف الخضروي يعطى لها في شهري آذار (مارس) ونيسان (أبريل) وأولئك المشايخ الذين يمتلكون مزارع في سهل البقاع يرسلون خيولهم لترعى هناك حتى شهر تموز. إن الراحة والتغذية الخضروية لمدة شهور

خمسة تزيد من قوة عضلاتها، أما في أشهر الخريف والشتاء فإنه يجري تدريبها بصورة منتظمة لتكون جاهزة للميدان والسباق الذي ومن نظهر أنه محاولة في إظهار قوة الحيوان فهو ولا شك ضار وسيء التوقيت.

إن الميدان القانوني الجيد هو تلك الفسحة التي تقع مباشرة أمام «المنزول» أو قاعة الاستقبال، ويبلغ طوله ثمانين ياردة ٧٢ متراً وعرضه أربعين ياردة أو ٣٦ متراً. ومن أبرز المشاهد منظر الإستعداد للعبة الجريد. هنا يظهر المشايخ وأتباعهم ممن سيشاركون في اللعبة يقيسون خطوات خيولهم في الكرّ والفرّ مهيئينها بذلك على تعبئة صدورها بالهواء على الطريقة التي يتبعها فرسان الإنكليز في ميادين السباق. وبعد ربع ساعة يصرفونها في مثل هذه المناورات، ينقسم الفرسان إلى فريقين متقابلين على طرفي الميدان ويتألف كل فريق غالباً من ثمانية أو إثني عشر على الأكثر، في كل فريق. يتسلّح كل فريق بعصا متينة ثخانتها لا تزيد على إنش واحد ٢،٥ سنتمتر وطولها ياردة ونصف أو ١,٣٥ متر رأسها غير دقيق، أي مدبب، مبروم في طرفيه، وهذه العصا هي الجريد. تبدأ الخيول بضرب الأرض بقوائمها حماساً لتبدأ السباق دون إنتظار، إذ أصبحت دماؤها تغلي في صدورها. ينبري الآن واحد من الفرسان من أحد طرفي الميدان باتجاه مستقيم متقعصاً إلى الوراء في سرجه يمتد ذراعه الأيمن إلى تحت أبعد قليلاً من الوسط وفي يده الجريد وقد أمسك بها بكفه متوازنة وأحكم القبض عليها بأصابعه. ثم بعد أن يكون قد اجتاز ثلثي طول الميدان ينحرف بفرسه إلى اليسار دون تخفيف سرعتها ثم يقذف بالجريد بقوة مشتركة بينه وبين زخم الفرس. لا تظهر هذه الحركة البارعة للمشاهد العادي غير أن الجريد تكتسب قوة انطلاق لا على قدر قوة عضلات الفارس ولكن أيضاً بقدر زخم الفرس وبنسبة سرعة انطلاقها، وهكذا تنطلق من بين أصابع الفارس وكأنها حجر إنطلق من مقلاع. إن المهارة في رمي الجريد هي أن يتم إطلاقها عند هذه اللحظة. وفي اللحظة التي يرمي بها الفارس جريده يطلق لحصانه العنان عائداً إلى الطرف الذي انطلق منه. فيتبعه فارس من الجانب الآخر المقابل لاحقاً به متخيراً المسافة والوقت الذي يطلق فيها جريده هادفاً إصابة مبارزه في ظهره. وهذا الملاحَق (بفتح الحاء) يحاول تلافي الرمية إما بالغطس تحت بطن الحصان أو، إذا كان شديد المهارة، بالإنحراف وتلقي الجريد بيسراه. بهذا الشكل يشترك كل المتبارين في

الميدان، وهكذا تصبح المباراة مثيرة وعامة. ولا بد من وجود راجلين ليلتقطوا الجريد ويعيدوها إلى الفارس. قد تقع في بعض الأحيان إصابات بليغة. ويبلغ الحماس عند بعض المتبارين من المشايخ حد امتشاق السيوف والمبارزة بحماس وجدية وهنا يتدخل المشاهدون ويحولون دون إراقة الدماء. ويستمر الميدان عادة من ساعتين إلى ثلاث ساعات. ثم عند انتهاء الوقت يكون الفرسان والخيول قد أصبحوا في حالة إعياء، يتصبب منهم العرق بغزارة.

إن القوة التي تنطلق بها الجريد من بعض الأيدي المدربة هي أكثر من جيدة. مثلاً على ذلك أن الشيخ خطار العماد يستطيع أن يخترق بجريده لوحاً من الخشب القوي سمكه إنشان أو خمسة سنتيمترات، وإن أباه المرحوم علي العماد، الذي كان يعتبر في زمنه من أمهر الفرسان في سوريا اشترك بميدان في القاهرة بحضور محمد علي - حيث كان أحد طواشيه وهو عبد أسود، معدوداً من أمهر المتبارين نظراً لبراعته وقسوته في استعمال الجريد. والشيخ قبل التحدي بعد أن طلب الأمان عما يمكن أن تسفر عنه هذه المبارزة من نتائج وبعد رمية أو اثنتين تفاداهما الشيخ بحنكة تبع خصمه عند تراجعه حسب أصول المبارزة وسدد إليه الجريد (ويقال إن جريدته كانت ذات رأس غير كليل) بقوة ورشاقة فأصاب الخصي واخترقت الجريد ظهره من بين كتفيه ونفذت من صدره وقد كان محمد علي وفياً بوعده، فلم يتخذ أية تدابير بحق الشيخ لمعاقبته على هذه الضربة المميتة.

أما عن طبيعة هذه المبارزات المثيرة فالمدهش أنه لا تقع حوادث أكثر خطورة. بيد أنه من النادر أن ينتهي ميدان بلا حدوث جراح أو كدمات طفيفة ولو أن الفرسان كانوا يتبارزون متلاصقين أو من مسافات أكثر قرباً لتعددت حوادث القتل. وما لم يكن مستحسناً فالرمي بقوة عندما يؤخذ الخصم. غير أنه في حالة الغضب لم يكن ليعمل بهذا اللين، وغالباً ما كان الحصان هو الضحية. وفي ميدان أقيم في بيت الدين حيث كان يقيم الأمير بشير الشهابي شوهدت فرس تقفز إلى وسط الميدان وفي بطنها جريدة مشكوكة كان الأمراء المسيحيون (المؤلف يعتبر الأمير بشير مسيحياً) والشيوخ، يشاركون في هذه التسلية. غير أن الدروز كانوا يشتركون فيها بحماس وشوق وقوة وهي من صفاتهم المميزة في الحروب.

كل درزي أكان شيخاً أو فلاحاً، إذا كانت لديه الإمكانية، فمن المأثور عنه هو أن يلجأ إلى التوفير (قرشك الأبيض ليومك الأسود) وبذلك يبقى لديه مبلغ من المال لحين الإضطرار لا يتصرف به إلا عند الحاجة القصوى. وفي أكثر العائلات، يكون هذا المال الموفَّر، ميراثاً عائلياً من الأب إلى الإبن الأكبر ولا يجوز التصرف به في الحالات العادية كمصروف يومي، والدرزي قد يستدين مالاً يحتفظ به إلى يوم الحاجة مهما بلغ معدل الفائدة. إن ميزة الإحتياط وبعد النظر هي من الأخلاق البارزة عند الدروز، التي تملي عليهم مثل هذا الحذر كوسيلة من وسائل الضمان التي لا بد من اتخاذها في أوضاع كثيرة التقلّب، كما هي الحالة في معظم الأوقات في لبنان وهذا علّمهم إياه ما جرى منذ زمن طويل إذ قد يفاجأون بأحداث شديدة الخطورة تضطرهم إلى مغادرة مناطقهم. ومثل هذه الممارسة أصبحت عادة متأصلة، وهي مدعاة للتأكيد أن ليس من درزي، كائنة ما كانت أوضاعه المالية إلا ويتمسك بهذه الممارسة دون إهمال.

الفصل الثاني

الشيخ المقاطعجي واحترامه ـ الفلاحون التابعون له ـ العقّال وامتناعهم عن الأكل في الولائم إلا مما هو حلال ـ حماية النزيل والخائف ومساعدة الفقير ـ زواج البنات، العادات والتقاليد ـ حفلة الزواج ـ رفضهم تعدّد الزوجات والرجوع عن الطلاق ـ مناسبات الولادة ـ الاستعاضة عن لبس الطرطور وسببها.

إن الفلاحين من الدروز يظهرون لمن هم أرفع رتبة منهم كل تقدير واحترام. فلو دخل أحدهم إلى مجلس أحد الشيوخ فالفلاح يتقدّم بهدوء ثم ينحني ليقبّل يد الشيخ، إذ ذاك، وبعد هذا التصرف الذي يظهر شدة الإحترام يقف الشيخ ويرحب به، وبعد السؤال عن صحته، يدعوه إلى الجلوس. والفلاحون التابعون للشيخ، من خاصته، يجلبون معهم الهدايا، من دواجن، أو سكر، أو قهوة، خصوصاً في المناسبات الكبيرة مثل الأعياد الهامة، أو الولادة في أسرة هذا الشيخ، أو لدى عودته من سفر طويل، كما وأنهم يضعون أنفسهم تحت تصرفه فيما لو أظهر أنه بحاجة إلى خدماتهم في مرافقتهم إياه للقيام بنزهة إلى مكان ما في الجبال. ولو أنه عزم على بناء مسكن، فإنه يدعوهم لإحضار الحجارة من المقالع، والخشب من الغابة، ويقدم هو لهم كمكافأة على أتعابهم وليمة في نهاية يوم العمل.

في المناسبة التي يقيم فيها الشيخ وليمة يجلس الشيوخ حول بساط الطعام يأكلون جميعاً وكلما فرغ أحدهم من الأكل، نهض ليحل محله واحد ممن لم تتسع لهم المائدة في بادىء الأمر، دون تمييز أو تفريق؛ وطالما كانت رؤية مشاركة الشيوخ للفلاحين بالتغميس من صحن واحد أمراً عادياً.

أما العقال منهم، فلا يتناولون الطعام في مثل هذه الولائم، لأن طعامهم يجب ان يكون مما كسبوه بعرق جبينهم ومن أملاكهم المحللة لهم، لذلك فقد كان من المألوف أن يكون لدى الشيخ مخزنان، واحد منهما خاص بالموحدين العقلاء، إذ أن كلما يجري شراؤه

بمال الدولة التركية، أو من مبيعات أسلاب الحرب، يعتبر حراماً. فعدد كبير من شيوخ الدروز حصلوا على مبالغ كبيرة من الأمير الشهابي أثناء حكمه الطويل في لبنان. إن كل ملك جرى شراؤه بهذه الأموال كان حراماً، لأن موارد الأمير كانت تعتبر أموالاً

تحصلّت بالظلم والإستبداد (*) .

إن هذا التدقيق مبني ولا ريب على مبادىء تعاليم ديانة التوحيد التي تمنع بحزم أي اختلاط مع غير المؤمنين الذين هـم من الدروز غير المدققين. ولما كان هذا الرفض القاطع من العقال، لتناول الطعام على موائد المشايخ يؤثر على العلاقات في التعاطي العادي الذي تفرضه العلاقات اليومية، لذلك فقد استجاب المشايخ لرغبة العقلاء في إيجاد مخازن للموارد غير المشبوهة وبذلك ارتفعت الشبهات.

أما الأجانب والغرباء من مختلف الجنسيـات فـإنهم يُلاقـون مـن قبـل المشـايـخ بالترحاب، ويعاملون بكرم واحترام. ولو صدف أن لجأ إليهم معوز، أو متجول، كما هي الحالة فإنهم يقومون بجمع المال له، بفرض مبلغ على كل شيخ منهم بالنسبة لإمكانيته المالية، والقهوجي هو الذي يقوم بجولات لتحصيل المطلوب في المناسبات المتعاقبة، وهذا يدفع فوراً. وفي حالات اللجوء إلى حمى الشيخ من قبل خائف أو لاجيء فإن منزل الشيخ الدرزي لا يجوز إنتهاك حرمته، وليس من شيء يمكن أن يقنعه لتسليم من شمله بحمايته، أو يدل على مكان وجوده عنده، وإنه ليعرض نفسه لأشد الأخطار والخسائر حفاظاً على الثقة والإطمئنان اللذين أوليهما.

بين مشايخ الدروز، هنالـك عـائلات يحصـل بينهـا التـزاوج، ويحذر على هـذه العائلات أن تطلب لها علاقة رحم مع عائلات أخرى. إن مبدأ زواج شيخ من وسط أقل مكانة من وسطه غير معمول به في الوقت الراهن. وإن زواج شيخ من إبنة درزي لمالها وغناها من وسط أقل رتبة تكون لها نتائج ذات طابع خطير على من يقدم على مثل هذا العمل الذي يعتبر احتقاراً لعرقية العائلة، ولو أن الزوج الشيخ نجا من العقوبة، فالزوجة لن تكتب لها النجاة. هذا السلوك في لبنان معمول به بين العائلات المسيحية أيضاً، وليس من إنتقاد لمثل هذا التشدّد في بلاد يفرض على الأرستقراطية فيها أن تحافظ على مكانتها في جميع الأحوال، إذ لا بد من الحفاظ على المراتب الإقطاعية تلك التي ترسم الخطوط بين

(*) كانت أملاك بجوارة حيث عاش تشرشل ملكاً للشهابيين وهذا ما منع العقال من الأكل على مائدته. حتى أن أحدهم الشيخ حمود عبدالملك أخذ مرة حبة عنب وضعها في فمه ثم أخرجها ورماها دون أن يبتلعها.

طبقة النبلاء وعامة الناس فإن مثل هذا التناسب عن طريق الزواج يجب أن تبقى الخطوط الفاصلة فيه غير قابلة للمساس بها، مهما كانت المصالح الخاصة أو غيرها داعية لانتهاك هذه القاعدة أو السلوك، ولن يكون هناك تساهل أو غض نظر عن تصرف فيه إنتقاص لاحترام أو تقدير يتقيد به كل من الأرستقراطيين في جميع مراحل الحياة ومتطلباتها، إذ أنه مطلوب بل واجب العمل به من قبل جميع الناس. قد تضطر بنت الشيخ أو الأمير أن تبقى عازبة طوال حياتها ولا تعطي يدها لمن يقل عنها نبلاً. ولكون هذه القاعدة غير مجادل فيها وغير قابلة للمساومة ولا للتهاون فيها فقد احتفظت العائلات النبيلة بما فيه من احترام ورفعة، وحفظت مكانتها الإقطاعية وهي مكانة كان التساهل بالتزاوج بين غير الأكفاء فيها لو حصل عامل هدم.

عندما يريد شيخ أن يتزوج يرسل رسولاً إلى والد الفتاة التي وقع عليها الإختيار طالباً الموافقة. فإذا كان والد الفتاة راضياً يطرح الأمر على إبنته التي تترك مصيرها رهناً بحكمته ومشيئته الأبوية، ولكن لو أنها كانت لا تشعر بميل لطالب يدها فإن رأيها يكون مأخوذاً به، ولن يجري زواج بغير قبولها ورضاها. إن مثل هذه التصرفات من قبل الوالدين في الشرق نادراً ما يعمل بها عند غير الدروز، إذ من المحتمل أن يكون مثل هذا الزواج قد سبق وتقرر منذ الولادة، ولا حساب لمشاعر الفتاة. ولكن إذا حصل الرفض بسبب مداخلات مغرضة جعلت الفتاة تميل إلى الرفض فإنه من المفروض العودة إلى تحكيم الوالد ونفوذه، ولدى الموافقة على الزواج يبعث الخاطب بهداياه المؤلفة من ملابس وحلى وهي عبارة عن الشبكة التي تدل على ارتباطه وقبوله. وفي اليوم الذي يعين للزواج يتوجه بعض العقال وأقرباء العريس إلى بيت العروس حيث يكتب العقد ويوقعه شيخ العقال وبعض الشهود، يبيّن فيه قيمة المهر المتأخر وهو مبلغ من المال يتراوح بين عشرة إلى خمس عشرة ليرة إنكليزية وهذا العقد يعطى لولي أمر الفتاة. ولا يعتبر المبلغ مستحقاً إلا في حالة الطلاق وقبل تلاوة العقد تتلى بعض الآيات القرآنية لإعطائه معنى دينياً طبقاً للطقوس في الشريعة الإسلامية التي يتبعها الدروز في مثل هذه الأحوال. عندئذ تمتطي العروس فرساً معدّة لذلك ويسير في ركابها جمع كبير من الرجال والنساء بينهم عدد من أقاربها إلى منزل زوجها.

أما بيت الزوج فإنه يكون حافلاً، طوال أسبوع، بحفلات الإبتهاج والطرب. وما

أن يقترب موكب العروس حتى يتقدم لملاقاتها أفراد عائلة العريس وأتباعهم وخدمهم على بعد مسافة نصف ساعة من المسكن الإقطاعي. يكون المتقدمون من الفئتين مزودين بطلقات إبتهاج خالية من الرصاص، وهنا تبدأ معركة شكلية تجري بحماس ويستعمل الدروز فيها كل ما يتقنونه من مناورات حربية، في الكرّ والفرّ إلى أن يرتد العريس إلى قريته على الطريق الني جاء منها دون اللجوء إلى المتاريس وراء الصخور أو الأشجار أو المرتفعات، على غرار ما يجري عادة في الحروب من الإستعدادات القوية للدفاع، وأخيراً بين الأهازيج وصيحات الإبتهاج تطلق البنادق وتشق العروس طريقها إلى الميدان حيث تحمل هناك كما هي إلى جناح الحريم.

في هذا الوقت يكون الميدان في غاية الروعة وقد اجتمع فيه عدد من الأشخاص لا يقل عن ثلاثمائة، يقف على جانبيه المشاة، بينما يكون المشايخ الدروز الذين يمتطون خيولهم الأصيلة في غاية الإبتهاج بعد الحرب الشكلية التي لعبوها، وسرعان ما يبدأ الفرسان لعب الجريد بمنتهى الحماس متشوقين لإظهار كامل براعتهم ومهارتهم بحضور أتباعهم ولا يغرب عن بالهم أنه ربما كانت هناك عين نجلاء تراقبهم من وراء سجوف الشرفات والنوافذ بإعجاب.

أما العروس فإنها تكون في هذا الوقت تلقى الرعاية والعناية وتتقبل تهاني أقربائها الجدد، الذين يرافقونها إلى غرفة معزولة وهناك تجلس على طنافس أعدت لها وقد وضعت أمامها أطباق الحلوى، ثم على أثر ذلك تنسحب كل النساء وتترك لوحدها وعلى وجهها منديل مزركش بالذهب ملقى على رأسها وصدرها وكتفيها إلى وسطها. ومن يدري ما يجول برأسها إذ ذاك من الأفكار والتخيلات في عزلتها هذه، حيث تمتد تخيلاتها إلى ذلك الذي سيدخل هذه الغرفة بعد لحظات ليتلقى منها نظرات الإعجاب والحب. إنها تسمع وقع أقدامه أمام الباب، وها هو يفتحه بهدوء وصمت ودعة، ويتقدم الحبيب نحوها منفرداً فيرفع بلطف المنديل الذي يغطي الوجه، ويلقي نظرة خاطفة، ثم يعيده ويخرج من الغرفة عائداً إلى قاعة الإستقبال الكبيرة فيجلس على رأس المتكأ (الديوان) حيث جلس المشايخ بالترتيب المعروف ومعهم الضيوف الآخرون الذين تلقوا دعوات لحضور المناسبة. تدار على الحضور القهوة والسكاير وتتعالى الأصوات بالتهاني من كل الإتجاهات مشفوعة بأطيب التمنيات والدعوات بالتوفيق والسعادة والرفاه والبنين.

يبقى العريس في صمت مطبق، وقد انشغلت أفكاره بأمر واحد استغرق كل تفكيره، يؤخذ مثل هذا الإنشغال بعين الإعتبار من قبل المهنئين أما شقيقه الجالس إلى جانبه فيتولى الرد على عبارات التهاني والتمنيات بمثلها تاركاً للعريس فرصة للتأمل.

وبعد أن ينتهي المشايخ والحضور من تناول الطعام يفتح الميدان أمام من يشاء. وعند المساء يتقدم الموسيقيون بآلات الطرب وتستمر الحفلة إلى بعد منتصف الليل وهو الوقت الذي تنتهي فيه الحفلة وينصرف العريس إلى عروسه. أثناء هذه الحفلات لا تجري أية مراسيم دينية. وكل المشايخ الحاضرين يقدمون الهدايا إلى العروس، كل على قدر طاقته من خمسين إلى مائتي قرش أو من عشرة شلنات الى ليرتين، وهذه الهدايا ترسل إليها بواسطة أحد رؤساء الخدم في الحي وفي اليوم التالي أو بعد يومين يعود الجميع إلى منازلهم

إن تعدد الزوجات، أو الإحتفاظ بالجواري، وهو ما يسمح به للمسلمين، مناف للأخلاق الدرزية، وأيضاً إعادة المطلقة إلى بيت مطلقها في مطلق الأحوال. وعندما يتزوج موحّد يتوجب عليه أن يعتبر زوجته مساوية له. وإذا قضت ظروف ما بالإنفصال تجري التحقيقات في من هو الملام، فإذا ظهر أن الزوجة كانت غير مطيعة لزوجها أو مشاكسة في تصرفاتها، بينما سلوك الزوج وشعوره نحوها لا شائبة فيها، وكانت تصر على الفراق يكون من حقه أن يحتفظ بنصف ما تملك مما هو من حقها أكان ملابس أو حلى أو ممتلكات أخرى، أما إذا كان العكس، وكان الزوج قد عاملها معاملة سيئة أو كان يريد تطليقها لهوى في نفسه، فإنه يحق لها أن تحتفظ بكل ما هو لها ومن حقها، أكان ما هو متوجب على الزوج أو ما اصطحبته معها من بيت أبيها. إن الدرزي عندما يريد طلاق زوجته يكتفي بأن يقول لها «أرى من الأفضلُ أن تعودي إلى بيت أبيك» أو لو شاءت الزوجة فراق زوجها فإنها تكتفي بالقول له «أحب أن أعود إلى بيت أبي» فإذا كان جواب الزوج «لا مانع إذهبي» يكون الطلاق نافذاً والفراق لا رجوع عنه. وهنا يكون لأي منهما الحق في الزواج ثانية، أما مناسبات الولادة، إلا في أحوال نادرة وعند الضرورات، فلا تستقبل بالإحتفالات العامة. ويقتصر الإبتهاج على أفراد الأسرة والأقرباء اللوازم الذين يشاركون في الإبتهاج ويهنئون إذا كان المولود ذكراً وأحياناً يقدمون هدايا نقدية. وغالباً ما تسجل هذه المبالغ وتعاد بقيمتها أو بأكثر منها في مناسبة مشابهة، إذا كانت هذه المناسبة تقتضي مثل هذه الهدية وتقديم التهاني. بيد أنه إذا كان

المولود أنثى تعتبر الولادة غير سعيدة ومن المؤكد أن لا تعطى أي اهتمام ولا تقدم أية هدايا أو تهاني. فإذا كان المولود ذكراً يتولى الأب تسميته، وفي بعض الأحيان يستشار العقلاء باختبار الإسم فيقع الإختيار بعد إجراء حسابات فلكية أو نوع من التنجيم يتوافق مع المراسيم الدينية عند الدروز لاختيار الإسم المناسب الذي يرافقه السعد. كل ما لدى الأبوين من ممتلكات يقسم بين الذكور بالتساوي، ولا تحصل الإناث على شيء إلا في حالات نادرة. والأرملة لا تنال نصيباً من التركة إلا إذا كان الزوج قد أوصى لها (هذا جرى تعديله في قانون الأحوال الشخصية بعد سنة ١٩٦٣ وفي حالة وفاة الرجل دون أن يترك وصية يعمل بالتشريع الحنفي عند الدروز)(★).

كل السيدات الدرزيات هن في الأكثر من ذوات البشرة البيضاء، والعيون السوداء، والقدود الأكثر طولاً من المعدل المعروف في النساء بتناسق جميل. عزل الحريم عندهم واجب وفي بعض العائلات فإنهن لا يظهرن حتى أمام أقربائهن اللوازم. وعندما يضطررن إلى الخروج أو السفر يلبسن مناديلهن على وجوههن غير تاركات سوى العين اليسرى مكشوفة. أم الطراطير أو القرون التي كانت جزءاً من لباس الرأس الوطني للمرأة في لبنان فقد بدأت تختفي عند المسيحيين وعند الدروز على السواء وقد استعيض عنها بلبس الطربوش الذي يلف عادة بمنديل من الموسلين مطرز بالأزهار الملونة مما يساعد على إعطاء ما عليه من الحلى منظراً بهيجاً، أكانت هذه من إلماس أم من اللؤلؤ. وهي تكون معلقة ومثبتة بالطربوش بكثافة.

إن الطرطور أو القرون أصبحت من الأشياء المحرّمة في المناطق المارونية بسبب أنه في وقت ما بينما كانت سيدة تتناول الخبز المقدس من يد أحد الكهنة حركت رأسها فالتطم بيده وأريق الماء المقدس على الأرض من الإناء الذي كان يحمله الكاهن، وهذه الفاجعة جلبت اللعنة للطرطور من جانب المطران الذي كانت تصرفاته مقدسة وصدرت الأوامر الصارمة بنحريم استعماله. ولم يستطع هذا الطرطور معارضة القساوسة. والنساء لم يتمكن من الإعتراض والمقاومة. فوقع الإختيار على لباس آخر للرأس أخف وزناً، وألطف مظهراً وأكثر أناقة، وأصبح موضة دارجة والآن أخذت النساء المارونيات والدرزيات يظهرن ارتياحهن من ثقل فرض عليهن فرضاً ممن تقدمنهن في العصور السابقة.

(★) **ملاحظة من المترجم.**

الفصل الثالث

المآتم ـ عاداتهم وتقاليدهم ـ أيام الحروب ـ البيرقدار ـ انقسام الدروز في عهد الشهابيين إلى جنبلاطي ويزبكي ـ ابراهيم باشا وتجريدهم من السلاح ـ حاكم مسيحي للبنان ـ بدء الثورة ـ الكولونيل روز ـ ١٨٤٥ مهاجمة المسيحيين للدروز ـ تفوقهم في بادىء الأمر ـ المسؤولية على الموارنة ـ شجاعة الدروز وحنكتهم الحربية ـ دور النساء في المعركة.

عند وفاة أحد المشايخ الدروز، ترسل المناعي إلى العائلات من المشايخ في كافة قرى الجبل، وفي اليوم التالي يأتي المشايخ مع أتباعهم إلى القرية التي أقيم فيها المأتم، ويجتمعون كلهم في الميدان وقد يبلغ عددهم في كثير من الأحيان ٤٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ رجل، ولدى اقتراب أحد المشايخ من ذوي المكانة من مكان الإجتماع، يقوم ذوو الفقيد المشايخ، لملاقاتهم سيراً على الأقدام عند مدخل القرية يرافقهم أتباعهم وخدمهم حاملين جثة الميت في محفّة مفتوحة على الراحات. وهذه تعتبر إشارة احترام بالغ للقادمين. ثم تعاد المحفة لتوضع في غرفة مستقلة يحيط بها النساء.

ويكون الدروز طيلة النهار قد التزموا البقاء في الميدان يسيرون جماعات جماعات جيئة وذهاباً، كل جماعة يتراوح عددها بين خمسين وستين رجلاً، يسيرون الكتف على الكتف، يرتلون الأغاني والأشعار (الندب) يمتدحون بها الميت ويظهرون الأسى والحزن لفقده وغيابه. وبين الحين والآخر تندفع جماعة إلى الغرفة التي سجي فيها الميت ويتقدم أفرادها لتقبيل يدي الفقيد ووجهه ولحيته مع إبداء أقصى مشاعر الحزن والأسى الشديدين.

قبل مغيب الشمس بقليل تجري مراسيم الدفن. فتقف النساء على مرتفع بصمت بينما يسير المشايخ وأتباعهم على الأقدام مشيعين فقيدهم إلى مقره الأخير بصمت وحزن، ويرافق الميت عدد من العقال إلى مقبرة العائلة وهناك يقومون بتلاوة بعض الآيات القرآنية. ثم يقرأون وصية الميت على مسمع كل من يريد الإصغاء إلى ما جاء فيها ثم يتجمع المشايخ داعين للتقشف والحض على الزهد بالحياة والحذر من حلول الموت والإنصراف عن ثروات هذه الدنيا ومباهجها والإنصياع لأوامر الخالق والرضى والتسليم لأحكامه العادلة وهكذا ينتهي المأتم ويتوزع المشيعون والمشاركون بين أبناء القرية حيث يقضون ليلتهم حتى إذا طلع الصباح ينصرفون مع الفجر كل إلى قريته وبيته.

ولاء الدروز لمشايخهم، كان دائماً مظهراً تميزوا به في تصرفاتهم. وإنه لجدير بالتنويه أن هؤلاء المشايخ كانوا يستحقون مثل هذا الولاء لشجاعتهم وذكائهم. فأيام حكم الشهابيين كان هؤلاء يُستدعون بصورة مستمرة ليقدموا متطوعين في الحملات الحربية التي كان يشنها هؤلاء الأمراء دائماً، أكان لنصرة الحكومة التركية أو لمحاربة ولاة صيدا ودمشق.

فالشيخ عندما يتبلّغ أوامر الأمير يستنفر رجاله وينطلق إلى مكان التجمع، متولياً قيادتهم بسلطة مطلقة أثناء الحملة، مراعياً في كل الأحوال تنفيذ الخطة الموضوعة التي يرسمها الأمير نفسه. وعند القيام للحرب يتقدم الجموع حملة الأعلام بأبهة وقد زودوا بأوامر بالحفاظ عليها، وهؤلاء هم على الغالب ممن يتحلون بالشجاعة ويعملون تحت إمرة قائد لهم يطلقون عليه إسم « البيرق دار ».

ألوان هذه الأعلام متعددة بينها الأحمر والأخضر وهي الأكثر إستعمالاً. وليس عند الدروز موسيقى حربية قيد الإستعمال، ولكن أناشيدهم الحربية المثيرة للحماس كافية خصوصاً عندما يأخذون بترديدها باندفاع يرفع درجة تشوقهم لخوض المعارك. ولكنهم في الغالب يسيرون إلى المعركة بصمت مطبق وبمعنوية من أنيط بهم تنفيذ مهمة مقدسة. هؤلاء المحاربون يتقاضون أجورهم في نهاية النهار بصورة منتظمة بمعدل خمسة قروش للرجل الواحد إما من خزانة الأمير أو من مخصصات الشيخ التي في كل حال تدفع من خزانة الأمير عند العودة إلى مساكنهم.

إن حمل الجعبة ومشاكلها أمر لا يعرفه هؤلاء الجبليون. ويكفي أن يتزودوا ببندقية وكمية كافية من البارود والرصاص، وبعض أرغفة من خبز الشعير مع قليل من الجبن والزيتون في حمالاتهم ليقوموا باجتياز مسافات طويلة واثقين من أنهم سيتمكنون من التقاط المؤن في طريقهم، لا يشكون من جوع أو تعب يلبسون ثيابهم الكتانية لأسابيع، وينامون في الهواء الطلق، ويحاربون بمنتهى الشجاعة والصبر على المشاق ثم يعودون إلى قراهم دون أن ينبسوا بكلمة عن شؤونهم الخاصة وما تعرضوا له.

أثناء حكم الشهابيين كان مشايخ الدروز على اختلاف مشاربهم يعملون على تنفيذ رغبات الأمراء وقد عمد هؤلاء الأمراء إلى قسمة الدروز إلى فريقين تمهيداً لتحقيق مطامحهم، فريق تحت نفوذ جنبلاط وفريق تحت نفوذ يزبك. كان الفريق الأول لزمن

طويل بقيادة الشيخ بشير جنبلاط مساعد الأمير بشير وساعده الأيمن، والآخر بقيادة يزبك وهو من الذين برزوا في النصف الأول من هذا القرن (القرن التاسع عشر)، وكان ينضوي تحته عائلات ذات نفوذ وشهرة. وقد أخذ كل فريق إسمه من قائده، فكان الفريق الجنبلاطي هو التابع للشيخ بشير جنبلاط والفريق اليزبكي هو التابع للشيخ يزبك. اتصف الفريق اليزبكي بالشجاعة الفائقة وكان مؤلفاً من عائلات ذات نفوذ عريض يفوق ما لدى الفريق الآخر، إلا أنه كانت تنقصه الموارد المعيشية التي كان يتمتع بها خصمه الفريق الجنبلاطي بقيادة زعيم محنك يملك الغنى والثروة وكل مؤهلات القيادة.

وعندما فشل الشيخ بشير جنبلاط بتحقيق مخططاته بالتوسع، ولقي حتفه على يد الجلاد في سجن عكا، اغتنم الأمير بشير الفرصة ليثأر من جميع مشايخ الدروز، أولئك الذين حملوا لواءه، فهدم منازلهم إلى الحضيض واغتصب ممتلكاتهم وأجبرهم على الهجرة إلى أماكن قاصية.

إن الأمير بشيراً في العشرين سنة الأخيرة من حكمه المديد، بلغ ذروة التسلط في الحكم والقوة، وتمكن من إخضاع المشايخ الدروز وقتل روح العنفوان فيهم بإثارة الحساسيات بينهم، وروح التحاسد والحقد. إذ كان يلجأ إلى إغداق النعمة والنفوذ على فريق منهم إلى درجة كبيرة، بينما ينزل بالفريق الآخر كل أنواع الظلم والقسوة، حتى إذا رأى في من أنعم عليهم مظهراً من مظاهر الشموخ، عاد فقلب لهم ظهر المجن وأنزل بهم العقاب والمظالم، وراح يبدي الرضى عن أولئك الذين كان قد أوقعهم في أسوأ مهاوي الظلم ومرّغ رؤوسهم بتراب المهانة، فأصبحوا يلتمسون عطفه ورضاه ويتعطشون لنيل عطائه وعطفه. إنه كان يتلاعب بهم يرفع هذا ويخفض من قدر ذاك.

ومما زاد الطين بلة الإجراءات العسكرية الجائرة التي قام بها إبراهيم باشا بتجريدهم من السلاح وفرض التجنيد الإجباري عليهم، وهي أمور وافق عليها الأمير بشير بل أشاد بها، وهذه ساعدته على النيل منهم وبسط سلطانه عليهم. فخلال الخمس عشرة سنة الأخيرة من حكمه، تدنت قوة الدروز، إلى أدنى درجات الضعف، بل تحطمت كلياً.

وعند عزل الأمير بشير في سنة ١٨٤٠، على أثر عودة سوريا إلى الحكم التركي (الباب العالي) عاد من كانوا في المنفى، والكثيرون من الذين كانوا مهجرين في القاهرة برعاية محمد علي، والذين كانوا مشردين في القسطنطينية وآسيا الصغرى، عادوا إلى مناطقهم

ومعاقلهم في الجبال التي كانت تظهر عليها آثار الخراب والتدمير مما تعرضت له أثناء غيابهم عنها.

كانت محنتهم قاسية، ولكن، كائنة ما كانت آثارها وبصماتها على مستقبلهم ونصرفاتهم المستقبلية، فيما لو أن السلطة كانت ستطرح بالمزاد أمام باشوات الأتراك لنعطى لمن يدفع أكثر كالسابق، فإن تدخل دول أوروبا الإنساني كان سينقذهم من التجارب القاسية والمريرة التي كانوا سيتعرضون لها. وكانت لهجة الإنقسام والتفرقة أيضاً قد خفَّت بفعل ما نزل بهم من مآس، واختفى كل شعور بالتحاسد والحقد. وفي سنة ١٨٤١ وجدوا أنفسهم صفاً واحداً، فقد جمعتهم المحنة، ووحَّدت بينهم المصائب بروابط المصلحة المشتركة والشعور المتبادل.

جرى تعيين أمير آخر من العائلة الشهابية ليتولى الحكم في لبنان، وكان الإختيار سيئاً، كان هذا التعيين منافياً لما تقتضيه الحالة الراهنة من إجراء مصالحة، فإنه أثار استياء الدروز برعونته وفي الوقت نفسه لم يربح ثقة الموارنة واحترامهم. كان الدروز قد فرحوا لتحررهم من نير الأمير بشير الثاني، وكان الموارنة يتأسفون لفقدان المكانة التي كانوا قد بلغوها أثناء حكم سلفه القوي المحنك. وكلا الفئتين تولاهما شعور واحد بعدم الثقة والإرتياح، ظهرت بوادره بتحركات سرية، وإشاعة عدم الرغبة في الرضوخ لمثل هذا الحكم.

فضلاً عن أن تعيين حاكم مسيحي على لبنان لم يكن ينظر إليه من قبل الأتراك بارتياح. ولم يكن مستغرباً، أن يحاول المسؤولون الأتراك الإفادة من وجود ثغرات تمهد لاسنعادة تدخلهم المباشر في الشؤون اللبنانية، وأن يعملوا على تقوية روح الإنقسام والمنافسة بين الدروز والمسيحيين إلى أن تبلغ في مداها إمكانية تفجير اضطرابات خطيرة.

ففي صيف سنة ١٨٤١ حصلت مشادة بين درزي وماروني على صيد الحجل في حقل قريب من دير القمر وأثارت تفاعلاتها خصومة بين الطائفتين. ففي اليوم التالي أطلق مسيحي النار في شوارع تلك البلدة على درزي. وثارت الجماهير معتدة بأسلحتها فحصلت معركة مميتة، وهكذا بدأت حرب أهلية بكل مخاطرها. وهرعت جموع الدروز من القرى المجاورة وكانت دير القمر ستتعرض إلى الحريق والدمار لولا أن ساقت الأقدار الكولونيل روز قنصل صاحبة الجلالة البريطانية الذي وصل من بيروت في الوقت المناسب

على أثر إبلاغه ما كان قد وقع من خلاف ليحول دون وقوع الكارثة.

لقد تجاوب مشايخ الدروز مع مطلبه . إن مكانته وصلاحياته كممثل لدولة، كان لتصرفاتها في هذه البلاد ما أشاد بقدرتها ومبادرتها في اتخاذ الحزم بمواجهة المواقف، ما أكسبها في نظر السكان من الإحترام، ما جعله يتمكن من النجاح في القيام بالمتوجب عليه إزاء هكذا وضع خطر بين الفريقين. فانتصر السلام وتوطد، بيد أن هذا الإحتكاك كان له صدى ففي المناطق الأخرى من لبنان تصادم الدروز والموارنة مصادمات مميتة، كان الدروز فيها على الغالب هم أسياد الموقف. وكان الموارنة يتباكون لسوء حظهم وجرح كبريائهم. فأرسلوا بتقارير مبالغ فيها إلى أوروبا والنمسا وفرنسا وإيطاليا، ومراسيل إلى أبناء طائفتهم في لبنان. وقد جمعت الأموال لكي يتمكنوا من الإستعداد للأخذ بالثأر.

وفي ربيع ١٨٤٥ تفجّرت النار من تحت الرماد فقد هوجم الدروز في مناطق مختلفة. وكان الموارنة متفوقين لأنهم كانوا يملكون موارد أكبر بين أيديهم كان عندهم المال والسلاح، مما يجعلهم يتوقعون النصر، وكانوا متفقين وموحدين غير أن قادتهم كانوا متخلفين في فهم الأمور وتقدير ما يفتقر إليه أتباعهم من صلابة أخلاقية يمكن في بعض الحالات وإلى درجة ما، أن تغني عن وجود نظام عسكري.

بينما نجد أن الوحدة القائمة بين الدروز، والحذر الدائم، والحيطة الكاملة بالإضافة إلى وجود بعض الفصائل المتفرقة من الجيش التركي موزعة هنا وهناك في مختلف مناطق الجبل، التي كانت تقدم للدروز بين حين وآخر بعض المساعدات والحماية، حفظت توازن القوى بين الفئات المتحاربة وبالنتيجة فإذا لم يكن بالإمكان القول إن الدروز كانوا منتصرين فإنهم لم ينهزموا. لم يطردوا من لبنان كما كان قد صمم أخصامهم على تحقيقه.

غير أن الجبل كان يبدو في حالة واضحة من الخراب والدمار خالياً من السكان، لأن أعداداً من القرى مما يمتلكه الفريقان كانت تبدو محروقة ومدمرة إلى الحضيض في حالتي النصر والإنهزام. وكانت سحب الدخان تتصاعد في كل الجهات معبِّرة عما حصل من مآس.

إن المسؤولية الكبرى في حصول هذه الحوادث المميتة كان يجب أن تقع بالتساوي على قادة الموارنة وكهنتهم، فإن البطريرك الماروني أعلن على الملأ أن القيام على الدروز

هو حرب مقدسة. وقد تولى الرهبان وضع خطط الهجوم وتجميع القوى المحاربة.

إن التحرّك العدائي كان مقتصراً على الموارنة المقيمين في الجبل الدرزي، بمساعدة المسيحيين الكاثوليك بأعداد كبيرة منهم، تقف إلى جانب الموارنة تعاضدهم وتقدم لهم الخدمات الجليلة لخدمة قضيتهم. غير أن المجموع الكبير من الموارنة لم يشارك، والسبب أن تجربتهم السابقة عندما تدفقوا من مناطقهم في كسروان والجبّة لمعاونة مواطنيهم، فوجئوا بأنهم خدعوا من قبل أمرائهم الذين حال تحاسدهم دون تعاونهم، وكان ذلك كافياً لأن يمنعهم من المشاركة في الحرب، ولأن تكون النتائج في غير صالحهم المادي أو المعنوي.

بينما سلوك الدروز في هذه المواقف المتأزمة كان مثالياً. فإن مرتفعات جبالهم كانت مغطاة بمراكز مراقبة متقدمة، مهمتها إعطاء الإنذارات للتجمع والهجوم. كان الرسل يتناوبون ساعة بعد ساعة بانتظام وأحياناً كل عشر دقائق من مكان إلى آخر من مواقع التلاقي مزودين بآخر الأخبار عن العدو وتحركاته، مكونين بتصرفاتهم هذه دوريات متواصلة تضمن وحدة الحركة والتعاون المتين بين كافة الوحدات. إنهم أحاطوا بلبنان وكأنه حصن مفرد. كانت النقاط الضعيفة تعزز بوحدات ترسل من مواقع أقل تعرضاً للإحتكاك وكانت التحركات للتطويق والإلتفاف تجري بذكاء وبعد نظر ودقة تعادل المعادلات العلمية في الحروب.

كان الدروز يتبعون شيوخهم بإخلاص وثقة وطاعة عندما يقودونهم إلى معركة ما بروح من الشجاعة والعنفوان تزرع في نفوس أتباعهم شجاعة لا تقهر وحماساً للنزال. كما كـان النساء يقمن بدورهن في المعركة، مستعدات لتلبية حاجات الجرحى، وحريصات دائماً دون كلل أو ملل على تزويد المقاتلين بالماء.

الفصل الرابع

افتقار المسيحيين للانضباط ـ ١٨٤٩ طلب التجنيد الإلزامي ـ شجاعة الدروز الاسطورية ـ اللجاه في حوران ـ انكسار جيوش ابراهيم باشا المصري ـ ١٨٤٢ الدروز من لبنان يلجأون إلى اللجاه في حوران ـ القنصل الإنكليزي يتوسّط من قبل الأتراك ـ الخداع التركي ـ القنصلية الإنكليزية في دمشق تستضيف الدروز ـ مراسم ومراتب بين المقاطعجية.

ليس من المستغرب أن يبالغ الدروز في تقييم قوتهم ومكانتهم تقييماً عالياً، وأن ينسبوا أسباب إنتصارهم وتفوقهم على الموارنة، لشجاعتهم وذكائهم، ولا يلتفتوا إلى ما هنالك من زعزعة في وحدة الصف الماروني الذي يفتقر إلى قيادة حكيمة قادرة هي السبب في شل قدرتهم الحربية وتحركاتهم، وإجهاض ما لدى أفرادهم من الشجاعة والإقدام لأنه من المؤكد أنه لو جرى حشد ٥٠٠٠ رجل من الموارنة ودرّبوا وأحسن إعدادهم وانضباطهم وطاعتهم لأولئك الزعماء الذين أسندوا إليهم أمورهم لتكوّنت منهم قوة فاعلة وقادرة على مواجهة العدد المماثل من أخصامهم الدروز.

بيد أن أمراء المسيحيين وشيوخهم، إلا إذا استثنينا القليل النادر منهم كانوا يفتقرون إلى هذه المؤهلات البطولية والحماس القتالي الذي يتميز به مشايخ الدروز، في ساحات القتال، على الموارنة. بينما يصح القول دون تحيّز، أن ما يزعزع تنظيم القوات المارونية ويجعلهم عاجزين أمام الدروز هو ما يتحلى به أخصامهم من انضباط وتنظيم، هما في المرتبة الأولى. ولو ذكرنا ما جرى مرة في حوران عندما طالب المصريون بتجنيد إلزامي في سنة ١٨٣٩ لبدا لنا في أي مستوى من البطولة يجب تقييم مهارتهم القتالية. إن ثمانماية فقط من الدروز واجهوا خمسة عشر ألفاً من جنود إبراهيم باشا من أقوى الجيوش تدريباً، فهزموهم ومزقوهم تمزيقاً.

إن الأحداث التي نتجت عن طلب التجنيد الإلزامي من الدروز في حوران تشبه الروايات والأساطير، كان شريف باشا الحاكم المدني لدمشق قد استدعى الشيخ حمدان رئيس مشايخ الدروز في تلك المقاطعة إلى ديوانه، وقد نُفذ الأمر فوراً، وعند مقابلته أبلغه طلب الحكومة وعبثاً حاول إظهار الصعوبات التي تكتنف مثل هذا التدبير القاضي بفرض التجنيد الإلزامي على مجموعة من السكان كانت قليلة العدد تكاد لا تكفي للقيام بزراعة الأرض. كما قدّم كثيراً من الأعذار الأخرى المقنعة للباشا لرفع مثل هذه الخدمة الإلزامية عنهم لأنها ستكون سبباً في خراب المنطقة وإفراغها من السكان.

ولكن الباشا أفحمه بعبارات قاسية حادة ومهينة. ولما وجد الشيخ أن محاولاته كانت دون جدوى، وافق على جمع العدد المطلوب من المجندين لكنه طلب من الباشا أن يمنحه مهلة أسبوع لتحقيق ذلك فوافق الباشا دون تردد.

وبعد انقضاء المهلة وهي عشرة أيام، توجه ٣٠٠ من الجند الأتراك الخيالة إلى مقر الشيخ في إحدى قرى حوران الدرزية. وقد استقبل الجنود بالترحاب والإكرام وأنزلوا ليلتهم بين الدروز، وعندما أرخى الليل سدوله، أيقظ الدروز هؤلاء الجنود وأحكموا السيوف برقابهم. ولم ينج سوى الآغا وحده بطريقة عجيبة فامتطى فرساً وانطلق إلى دمشق بعد أن وقعت الواقعة، قدّر الدروز ما قد ينتج عن ذلك من عواقب ترمي إلى إخضاعهم، فاتخذوا لهم من اللجاه معقلاً يتحصنون فيه، وهو عبارة عن مرتفعات جبلية تشبه بحراً زاخراً بالأمواج عند ما تثيره عاصفة هوجاء.

ومن دمشق تقدمت حملة قوامها ٧٠٠٠ من المشاة و٥٠٠ من الخيالة مجهزة بعدد من المدافع وبادرت إلى الزحف في اتجاههم. لم تواجه في بادىء الأمر سوى ببضعة طلقات متفرقة من وراء الصخور، ظهرت وكأنها قوة الدفاع الوحيدة التي يمتلكها المحاصرون ليقاوموا بها القوة الزاحفة. وهكذا تقدم الباشا على رأس حملته مطمئناً إلى تلك الأرض الوعرة التي بدت وكأنها خالية من المحاربين، وهنا سرعان ما تفجّرت الطلقات من كل جانب وتنافر الرجال المسلحون ليبدأ الكر والفر، وهنا تراجع الجند وقد استولت عليهم الدهشة، وتولاهم الذعر ولم يتمكنوا من القيام بأية مناورات، فقد قام الدروز بهجوم صاعق وانقضوا عليهم كالذئاب الكاسرة وأعملوا فيهم السيوف واليطقانات(★) وعملوا فيهم الذبح. ثم جاءت حملة أخرى يزيد عددها عن هذه الحملة وقام قادتها بمحاصرة المكان ولكنها واجهت في اللجاه نفس المصير. هذه الإنكسارات أخافت إبراهيم باشا فالخسائر التي تكبدتها جيوشه كانت كبيرة ومخيفة، ونظراً لكون الذين أنزلوها به حفنة من الرجال الدروز كانوا قد احتلوا اللجاه، أصدر أوامره بحصار هذه المنطقة الوعرة. ولكن حتى مع هذا الحصار وما أعد من قوة وتجهيزات، فإن التسلل الذي كان يقوم به الدروز إلى صفوف جيش إبراهيم باشا والفتك بحد السيوف برماة

(★) **شبيهة بالسيوف إلا أن نصالها مستقيمة وعريضة.**

المدافع أوقع الرعب والخوف في صفوفهم.

إنه من المحقق أن مقاومة الدروز للتجنيد الإلزامي لم تتوقف إلا بعد أن تحركت جبوش عديدة بإدارة إبراهيم وسليمان باشا فحاصرت سلسلة جبال لبنان الشرقية كلها ونزل بها من الخسائر ما كاد يمزقها تمزيقاً ويوقع بها أشد الأضرار. إن للجاه شهرة واسعة كحصن حصين يلجأ إليه الجماعات التي تواجه فشلاً في لبنان أو تكون مجبرة على الهرب وطلب النجاة من ظلم حاكم.

وفي سنة ١٨٤٢ وبعد محاولة فاشلة في محاربة الباشا التركي في بيت الدين الذي كان قد قام بها مشايخ الدروز انسحب هؤلاء مع ٢٠٠٠ من أتباعهم إلى اللجاه وقد وقفت الحكومة التركية في دمشق مشدوهة حيرى أمام فكرة أن تضطر إلى مواجهة احتمال إخضاع هؤلاء الجبليين الاقوياء الشكيمة، وفرض الطاعة عليهم بتجنيد حملة مؤلفة من ٣٠٠٠ رجل تتولى ذلك، بينما كان قد استطاع من هم أقل عدداً من هؤلاء الألفي رجل صد جيوش إبراهيم باشا وإرباكها، لذلك فقد لجأ المسؤولون من الأتراك إلى استشارة مستر وود، قنصل صاحبة الجلالة البريطانية الذي يقيم في تلك المدينة، واعتقاداً منهم أن مساعدته ستكون ذات فائدة كرروا الطلب إليه ليضمنوا أنه سيستعمل نفوذه ليعيد هؤلاء الدروز إلى الطاعة.

ومستر وود، شعوراً منه بعدم القدرة على التنصّل من الإقدام على هذه المخاطرة لكونه يمثل دولة أخذت على عاتقها الإهتمام بالحفاظ على قوة الحكومة التركية في جبل لبنان، لم يرفض فكرة استعمال نفوذه إذا كان ذلك سيؤدي إلى إصلاح الأمور. وعلى هذا فقد أعلن عن رغبته في تولي هذا الأمر والتوسط بإجراء مفاوضات بين الحكومة التركية والثوار ولكن بشرطين: العفو العام والضمانة الكافية لذلك. وأحمد باشا أجاب أن الضمانة التي يمكن إعطاؤها هو أن يحل المشايخ الدروز والمسيحيون(★) ضيوفاً على القنصلية البريطانية، وأنه زيادة على ذلك فإن أولئك الذين يحتفظ بهم الأتراك كسجناء في ثكناتهم، من أتباع هؤلاء المشايخ، سيسلمون إليه وقد أضاف تلقائياً أنه كائنة ما كانت الأوامر

(★) كان اثنان من الأمراء الشهابيين قد انضما إلى الدروز بهذه التحركات تحقيقاً لأطماعهم.

التي قد ترسل إليه من الباب العالي بخصوصهم فإنه سيكون على استعداد للمحافظة على وعده بإصدار عفو عام ولو كلفه ذلك، التخلي عن أوسمته.

وكنتيجة لهذه التعهدات فقد قام مستر وود بإرسال رجاله إلى حوران مزودين بالعفو العام وبرسائل منه مناشداً الدروز الخضوع للأوامر والإستسلام. وبعد بضعة أيام عاد رجال القنصل برفقة الأمير أسعد شهاب، والشيخ يوسف عبد الملك وزعماء آخرين من الدروز مع ٧٠٠ من أتباعهم. وقد صحب مستر وود هؤلاء الزعماء إلى ديوان الباشا حيث استقبلوا جميعاً بحفاوة وأنعم على كل منهم بعباءة كعلامة لقبول العفو عنهم.

أما الدروز الباقون فقد وصلوا إلى دمشق بعد وقت قليل، ولكن لما كانت أعدادهم كبيرة فقد كان مستر وود لا يملك القدرة على أن يتحمل نفقات إعالتهم، ولما رفضت الحكومة تعيين إعاشة لهم ومخصصات فقد سمح لهم بالعودة إلى بيوتهم. بينما سبعماية من الزعماء مع أتباعهم الأخصاء أدخلوا إلى حمى القنصلية البريطانية ليكونوا ضيوفاً على مستر وود القنصل البريطاني بانتظار أن يصدر الباب العالي عفواً عنهم. وبعد انقضاء شهرين وصل الفرمان الذي طال انتظاره، والذي كان يتضمن الأوامر التي لا تسمح بإطلاق سراح المشايخ الدروز بل بقطع رؤوسهم وإرسالها إلى القسطنطينية.

وبعد يوم من استلام الباشا في دمشق لهذا الفرمان، وكان هذه المرة، علي باشا، الذي حل مكان الباشا السابق الذي أشرنا إليه فيما تقدم، وقبل أن يعلن مضمونه على العموم دخل (الكيخيا) أمين سر الباشا عبر باب القنصلية في سّاعة مبكرة من ذلك اليوم وتساءل بمنتهى اللطف والأدب لماذا لا يتوجه المشايخ من حين إلى الآخر لتناول القهوة والتدخين في القصر. وقد كان أول المبادرين بقبول هذه الدعوة الكريمة الشيخ يوسف عبد الملك، فسار برفقة الكيخيا دونما إبطاء. ولكنه لم يصل إلى القصر حتى فوجىء بأنه موقوف ولدى وصول الخبر إلى مستر وود من قبل رجاله أسرع بالقدوم إلى ديوان الباشا وأعلن رفضه الجلوس قبل أن يعرف ما الذي حصل، وكان الجواب أن قرىء على مسامعه (الفرمان) بأوامر الباب العالي.

ولدى دخوله قاعة الإجتماعات شاهد إجتماعاً عاماً للمأمورين وعلامات الوجوم ظاهرة على وجوههم فوجه كلامه إلى علي وأحمد باشا مذكّراً أحدهم بما تمت عليه الموافقة التي على أساسها كان تدخله بين الدروز والحكومة، ومذكّراً الآخر بما أعطاه من

تعهدات ووعود بأن لا ينكل بما تعهد به من عفو عام مبيناً له بجزم أنه لو كان قد نقل إلى الباب العالي حقيقة ما جرى من وقائع لما كانت صدرت مثل هذه الأوامر.

وقد تقرر أن يصار إلى التقيد بالإرادة الأمبراطورية. والذي تجرّأ مستر وود على إعلانه هو أن إنكلتره لن تسمح بأن يستخدم قنصلها كوسيلة لإعدام عشرات من الرجال أعطوا حصانة وضمانات. وقد أثارت هذه المناقشات الحادة التي استمرت ما يقارب ثلاث ساعات، حدة الفريقين ورغم ما قدمه مستر وود من التماسات ومعاتبات وتوعدات فقد أخبر أنه إذا لم يسلم المشايخ الدروز الذين في ضيافته فإن فرقة من المشاة في الجيش التركي ستنطلق إلى القنصلية لإلقاء القبض عليهم بالقوة.

وقد صعق مستر وود لهذا القرار ولكنه أعمل فكره للحظات، وبعد إيقاظ كل ما عنده من فطنة وحكمة تقدم بمنتهى البرودة من علي باشا وبكل هدوء ذكره ببعض أحداث اشتركا معاً بها في وقت سابق وقال له « ما دام أنك تجد نفسك ملزماً بالتقيد، يا صاحب السعادة، بأوامر الباب العالي لتنفيذ الإعدام رغم ما ينجم عن ذلك من مخاطر ولما كنت قد توصلت إلى إقرار عزمك على إرسال فرقة من عسكرك لاعتقال هؤلاء الذين هم في حماية القنصلية البريطانية فإنه لم يبق لدي إلا أن أطلب منك خدمة واحدة ولي الثقة بأنك ستقبل طلبي في مقابل ما سبق أن قدمته لك من خدمات سابقة، وهي أن تخبرني عن موعد إرسال العسكر قبل نصف ساعة من إرسالهم لأتمكن من إبعاد الحريم من منزلي». وقد تساءل الباشا مستفهماً « ماذا تعني؟ أتريد أن تقاوم؟ » وهنا رد عليه مستر وود بجزم « بكل تأكيد، إني سأدافع عن شرف القنصلية البريطانية ولتكن النتائج مهما تكن، ولن يمس درزي أو مسيحي ما دمت أنا على قيد الحياة إني أترك لك يا صاحب السعادة أن تقدر ما يستطيع عمله رجال في حالة يأس قاتل، وأنا متأكد أن الحكومة البريطانية لن تسكت عن مجزرة تتسبب في قتلنا ».

وبعد هذا الكلام وقف مستر وود لينصرف ولكن علي باشا طلب منه البقاء في مقعده وقد ران صمت مطبق على الجميع. ثم بعد فترة استطرد علي باشا قائلاً « أنا أعرف من أنتم أيها الإنكليز ولن أكون سبباً لقيام سوء تفاهم بين حكومتك وحكومتي، وسأتحمل المسؤولية على عاتقي بعدم تنفيذ ما جاء في الفرمان وكل ما قد يصيبني لن يكون سوى استدعائي أو إقالتي من منصبي ».

وعلى الأثر أمر بإطلاق سراح الشيخ يوسف عبد الملك الذي خرج محاطاً بستة من قواصي القنصلية خارقاً الجموع التي كانت تقف في الساحات والشوارع لمراقبة الأحداث وبناء على مداخلات قام بها فيما بعد السر ستراتفورد كانين جرى سحب الفرمان الذي كان قد مضى على إصداره سبعة شهور، كان مشايخ الدروز لا يزالون أثناءها في ضيافة مستر وود.

كان لهذا الموقف الشجاع الذي اتخذه القنصل البريطاني بإصرار وعزم تأثيراً كبيراً على الجموع المتعصبة في دمشق يفوق حد التصور، وكان الإنطباع لدى الدروز بالغ الأثر ولا يمكن أن ينسى بل بقي مدار حديث الناس في مجتمعاتهم عن تقديرهم وامتنانهم.

إن المشايخ الدروز في مجتمعاتهم وأوقات سمرهم في أيام الفراغ يتحلون بآداب إجتماعية رفيعة تتوافق مع شعورهم بالإعتزاز، وهم، في ذلك، وبإسلوب مخاطبتهم بعضهم بعضاً، يتفوقون تفوقاً كبيراً على الأرستقراطية المسيحية في لبنان. إنهم يتوخون دائماً إستدرار الإحترام وهم برقة حديثهم ومجاملاتهم يستولون على مشاعر الغرباء لما في كلامهم من تهذيب. بينما في الوقت نفسه تنم سيماؤهم وتصرفاتهم، بمنتهى الوضوح، أنهم بتلطفهم هذا، يتعطفون على جلسائهم، دون أن يشعروا بأنهم بذلك يظهرون أنفسهم وكأنهم من أمة أكثر مواهباً وشرفاً من سواها.

إن الكبرياء والحرص هما الطابعان اللذان تتميز بهما أخلاقهم، أما في شعورهم الداخلي فهم يلقون نظرة إزدراء على كل الذين ليسوا منهم، إنهم يعرفون تماماً حقيقة مكانتهم إذ أنهم محاطون بجماعات لا تعاطف بينهم وبينها. ولهذا فلا يظهر عليهم حقيقة ما يدور في خلدهم مما يكشف حقيقة شعورهم. وهم يبالغون بإظهار الكثير من الإحترام والتهذيب واللطف وحسن المسلك كوسيلة لاكتساب الأصدقاء في كل مكان. غير أن نتائج مثل هذه التصرفات التي هي عندهم وراثية وردة فعل لأحداث معينة تشير إلى أنهم غير جديين. وفي المسائل التي تتعلق بشرفهم فهم شديدو الحذر وبالغو العنف إلى حد أنهم في تعاملهم بعضهم مع بعض تبقى هذه الإعتبارات معمولاً بها بدقة تبدو للغريب عنهم وكأنها مجاملات مصطنعة، بيد أن مثل هذا الشعور الذاتي بالإحترام هو عندهم شيء عادي وغير مستهجن.

إن مراتب عائلاتهم القيادية-تخضع لنظام أولويات لا يجوز تخطيه. وإن مجرد تقديم

فنجان من القهوة على غير ما يقتضيه نظام هذه الأولويات لا بد وأن يبيّن سببه أو يرفض رفضاً باتاً. وإن كتاباً يوجه إلى شيخ ولا يحمل غلافه عبارات التحية المألوفة والمعروفة أو إذا كانت كتابته قد حصلت على ربع صفحة من الورق بدلاً من صفحة كاملة، فإنه سينظر إليه بريبة وإذا تكرر ذلك فإن كاتبه سيفاجأ بقدوم المرسل له إليه دون إنذار أو موعد وقد تقلّد كامل سلاحه ويطلب تقديم الإعتذار. وكم هي شديدة الدقة أمور المداخلات مع الدروز فيما يتعلق بمراسم الإحترام والتقدير حتى أن العامة من الفلاحين بينهم عرف عنهم في الحالات التي كانت تؤدي إلى نشوب خلافات بينهم وبين المسيحيين. إنهم كانوا يفضلون الوقوف في موقف المعتدي ويعاملون كذلك ويدخلون السجون أحياناً على الإعتراف بأن مسيحياً تجرأ على التعدي عليهم ومس كرامتهم دون أن يكونوا هم البادئين. إن ذكاءهم بصورة عامة وقدراتهم كمجموع تفوق كثيراً ما لأمراء المسيحيين. بينما طول تعودهم الإعتماد على النفس قد أعطاهم براعة وحزماً في مواجهة الأمور التي تتعلق بمصالحهم وحقوقهم ولم يكونوا في وقت من الأوقات مخطئين في اتخاذ الخطوات اللازمة.

وبينما أخذت روح الإرتفاع في المقاطعات المارونية في كسروان وجوارها تنحصر وتضعف وتتلاشى، بقيت بين الدروز في كافة مناطقهم تمثل الوطنية الحقة. والطبقات الدنيا كانت تجد في التمسك بهذه الأصول التي تفرض التسليم التام والخضوع لسلطة شيوخهم سبباً من أسباب الترابط والتوحيد والقوة.

الفصل الخامس

المماليك والتنوخيون ـ التتار ـ حدود مصر وأهمية سوريا في حمايتها ـ قانصو غوري ـ المماليك، اسمهم، تقاليدهم، مراتبهم، استيلاؤهم على مصر وسوريا، نظامهم العسكري والإداري، لباسهم واختلافه بين فئة وأخرى، مجلس القضاء ومن يحضره ـ ١٥١٦ اندحارهم في مرج دابق ـ مقتل قانصو غوري ـ ظهور السلطان سليم الأول العثماني ـ الأمير فخر الدين الأول ـ انتهاء دولة التنوخيين ـ جبال الدروز ـ آل عساف التركمانيون وانقراضهم ١٥٩٢ ـ يوسف باشا سيفا ـ ظهور الأمير فخر الدين المعني الثاني.

كانت جيوش سلاطين المماليك في مصر قد ضربت الصليبيين ضربة قاضية ونهائية. إن قوة استمراريتهم وثباتهم الذي لا يتزحزح عن تحقيق مقاصدهم مكنتهم من إنقاذ ذلك الجزء الهام من أمبراطوريتهم من أيدي الفرنج؛ وسوريا رحبت واستقبلت المنقذين حكاماً شرعيين لها.

وإنه لجدير بالذكر أن نشير إلى أنَ خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت العلاقات مع السلالة الحاكمة في القاهرة على العموم متينة وثابتة. ورغم أنها تأثرت أثناء اجتياح التتار الكاسح ووجدت نفسها مجبرة على القبول لفترة قصيرة بحكم القادة الشرسين العتاة، فإن الأمرر سرعان ما عادت إلى مجاريها عندما انكشفت تلك الغيمة السوداء واجتازت البلاد مرحلتها المريرة.

ومصر التي هي محدودة من الغرب بالصحراء ومن الشمال والشرق بالبحر لم تكن تخشى أن يأتيها خطر من البر، إلا ذلك الخطر الذي يأتي من الجنوب أو من الحكام السوريين لو زحفوا عليها من الشمال الشرقي عبر البرزخ الذي يصل آسيا بإفريقيا (هو اليوم ترعة السويس). غير أن الحبشة التي تقع إلى الجنوب والمشهورة بتجارة العبيد والذهب والعاج لم تكن إطلاقاً في وضع يهدد أسياد مصر، ولكن في الجانب السوري فالخطر لم يكن في وقت من الأوقات غير محتمل الوقوع، ولذلك فإن تلك البلاد كانت تبدو لهم أنها الموقع المتقدم الذي لا غنى عنه لحفظ سلامة أمبراطوريتهم، وسوريا بصورة عامة بكليتها أو بقسم منها كانت تعترف بالسيادة المصرية وتعرف أن حكام مصر كانوا دائماً في حرب مع الآسيويين الذين يهددونهم.

وباستثناء الكلام عن غزوات جيوش الفرس والأشوريين الذين كانوا يزحفون إلى مصر عبر سوريا، وعدم التطرق إلى وصف الحروب المتعددة بين السلجوقيين والبطالسة في أيام حكم الدولة الإسلامية فإن حكام العرب كانوا دائماً ينظرون، بعضهم إلى البعض الآخر، بعين الحسد وعدم الثقة في الأوقات التي لا يكونون فيها رازحين تحت سلطة

العباسيين. هذا ما كانوا عليه في الماضي أو ما قد يكونون عليه في المستقبل. وإنها لحقيقة بدبهية، يجب أن ينظر إليها بعناية، لشدة خطورتها، أن ما يصيب مصر سيكون له تأثيره الشديد على سوريا. وإن أية تدابير سياسية تؤدي إلى الفصل بينهما ووضعهما تحت سلطتين مختلفتين ستكون تدابير ضارة، إن لم نقل مميتة، يسببها الخروج عن هذه القاعدة المعترف بصحتها وجدواها كنتيجة لتجارب العصور السابقة. فضلاً عما يوجبه تقدم الفنون الحربية الحديثة وما تفرضه العوامل الجغرافية وذلك الترابط بين البلدين وهي التي تشكل ضرورة ملحة لارتباط قوي لا يتزعزع.

إن السلطان المصري، قانصو غوري، في مطلع القرن السادس عشر، وهو الأخير في تلك السلالة التي أوجدها بيبرس، والتي عرفت بأنها السلالة الأولى لمماليك وادي النيل، ومؤخراً للمماليك الشراكسة، مدت سلطتها على مصر وسوريا لمدة مايتين وستين سنة منذ سقوط الأيوبيين أو أمبراطورية صلاح الدين سنة ١٢٥٤ إلى الفتح العثماني بقيادة سليم الأول سنة ١٥١٦.

وعندما تمكن الحكم العثماني بعد الإنتصار على ديار بكر وإحكام قبضته على سوريا مهدداً بابتلاع تلك البلاد كما ابتلع كردستان، فإن قانصو غوري الذي كان قد تربع على العرش طوال ست عشرة سنة، لم يكن يجهل مدى الخطر الذي يحيق به ويهدده. ورغم أنه كان في الثمانين من عمره فإنه قاد جيوشه وهو على رأسهم إلى سوريا، ومع أننا نعرف القليل عن المماليك فأقل من ذلك هو ما نعرفه عن التنظيم في أمبراطورية الشراكسة في وادي النيل.

كلنا نعرف أن الإسم مماليك معناه باللغة العربية أولئك العبيد الذين اشتراهم في وقت ما سلاطين مصر وكونوا منهم حرساً خاصاً بهم؛ وإن العديد من هؤلاء العبيد الأتراك الأصل، تمكنوا من الوصول إلى مراتب عالية في مختلف أقسام أمبراطورية الخلفاء المسلمين وأنهم استمروا في الحكم مدة قرنين ونصف قرن على عـــرش يعتبـــر أقوى العروش في المشرق، وأنهم في النهاية وضعوا مصر في قبضتهم الصارمة لمدة ثلاثمائة سنة تحت قيادة وزير إسمي لسلطان القسطنطينية إلى أن أطيح في النهاية بهم، ليس بالقوة ولكن بالغدر والخيانة؛ ولبس بقوة المحاربين في ساحات القتال بل باغتيالات سافلة وجبانة. ولكننا لا نعرف إلا القليل عن تنظيماتهم البدائية يوم كان هؤلاء الزعماء في أوج

عظمتهم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

ومعظم السائحين الأوروبيين والمؤرخين في القرون الوسطى تلقوا تعليماتهم من مصادر غير موتوقة بينما بقيت المخطوطات العربيــة التي تعطـي تفـاصيـل مسهبـة لتلـك المواضيع، غير معروفة على نطاق واسع، وتحتاج إلى من يترجمها. لذلك نرى أن إيراد بعض التفاصيل القليلة عن الأساس الذي قامت عليه دولة المماليك، وعن تنظيمات جيوشهم ونظام ونهج الدوائر ذات السلطة لن يكون بلا فائدة:

كانت الجيوش تقسم إلى ثلاثة أقسام، يتميز الواحد منها عن الآخر، لس من حيث السلاح وكميته، بل من حيث الرتبة وصلاحيات السلطة. فيعتبر المماليك الجر دس في المرتبة الأولى ومنهم المحاربون النبلاء، وهؤلاء هم العبيد من أصل شركسي خالص بلسهم عبيد الحبشة الذين كانوا يسمون الجلاب وهو إسم لا يزال يطلق على العبيد الذين يؤتى بهم حديثاً للقاهرة من بلاد النوبة والحبشة. والصنف الثالث والأدنى مرتبة كان ذلك المكون من القرصان وهؤلاء كانوا خليطاً من المرتزقة.

وكان كلما اعتلى العرش سلطان جديد في القاهرة، يتلقى الفـرد في الجيش منحة بالنسبة لوضعه في جدول المراتب المختلفة. فعندما اعتلى العرش قانصو غوري كان كل واحد من المماليك يتلقى مائة بندقي (عملة ذهبية) وكان الواحد من الجلاب يتلقى خمسين والواحد من القرصان ثلاثين. كان عدد البكوات أو الأمراء الذين يحتلون المراتب العالية في الدولة أربعاً وعشرين، يأتي بعدهم أحفاد أوغوس خان، الذي يعتبر المؤسس الأكبر والجد الأول للقبائل التركية الأربع وعشرين.

وكان يطلق على القائد العام لقب الأمير الكبير أو الأمير الأكبر. وكان لباس المماليك يتألف من الثوب الأبيض والعمامة المكونة من دورين الأول وهو الأدنى أخضر اللون والثاني وهو الأعلى أسود اللون. وكان البكوات يلبسون القباء الأبيض وفوقه عباءة زاهية الألوان. وكان كبارهم يتعممون بالعمامة الكبيرة المؤلفة من ستين ذراعاً من الشاش الناعم وقد لفّت بإتقان تتداخل لفائفها بعضها بالبعض الآخر بحيث يتكوّن منها ما يشبه القرن، وكان حجم هذا القرن يختلف باختلاف الرتبة التي يمثلها هذا الفرد، إذ يتراوح بين ذراعين وعشرة أذرع. فالقرون كانت في القديم من الزمان إحدى علامات العظمة والقوة وكان الناس يشاهدون صوراً ورسوماً لها على أوراق البردي التي كانت موجودة في

المشرق كله. إن الإسكندر الكبير لا يزال يعرف في آسيا بذي القرنين. وكانت أولى الأميرات العربيات التي لبست هذا الزي هي زبيدة السلطانة الأولى لدى هارون الرشيد. وهذا اللباس انتقل مع العصور كموضة مستحبة فكان دون ريب من علامات الترف عند النساء في لبنان من كل الطوائف وكن قد أخذنه عمن سبقهن فأصبح من مميزات الأناقة الأرستقراطية.

كان لضخامة العمامة غايتان، ثبات الرأس تحت ثقل العمامة، وفي الوقت نفسه تعويده على تحمل مثل هذا الثقل الذي يوازي ثقل الخوذة الحربية، والثانية جمود الرأس فلا يكون سريع الحركة وبذلك يكون مدعاة للرصانة والإحترام وملزماً صاحبه بالتروي والتأني. وما بقي من لباس الأمراء والقضاة والمشايخ كان خاضعاً لقواعد متساوية في التشدّد والدقة. لقد كانت الأبهة تتجلى بأعظم مظاهرها في معاطف الشرف التي طالما كانت مزركشة بآيات من القرآن أو أبيات من الشعر على الأطراف. أما الأكابر فكانوا يلبسون المعاطف ذات الأكمام القصيرة لكي تبقى أيديهم طليقة فيما لو اضطروا إلى إستعمال قبضاتهم. وعلى العكس فقد كان المماليك يلبسون المعاطف ذات الأكمام الطويلة جداً بحيث تغطي الأصابع، لأنه لم يكن من اللائق أن يقفوا أمام رؤسائهم بأيد مكشوفة.

يأتي بعد الأربعة وعشرين أميراً أو بيك، أربعة وعشرون حاكماً، إثنا عشر منهم يتولون الأحكام الإدارية في الارض المصرية، وإثنا عشر يتولونها في سوريا. كان أصحاب المقامات العليا في الدولة أولئك الذين في الجيش مثل القائد العام، والوزير الأكبر. وكان أكابر المماليك هم أمير الياخور أو الإسطبل، ورئيس الحجاب، والخازن الأكبر، وكان جميع الموظفين تحت إمرتهم وهم الذين في ترسانة الأسلحة، والذين في الإسطبلات، والذين في الديوان، والذين في إمرة الخازن، وكان بين القضاة، كبيرهم قاضي القضاة، يتبعه أربعة قضاة للمذاهب الأربعة المعترف بها، يحكمون بناء على الأحكام الشرعية لكل منها وهي شرائع الأئمة: إبن الحنفي، وإبن الشافعي، ومالك، وحنبل. كان هؤلاء يجلسون على يمين الحاكم في الأيام التي يعقد فيها الديوان الكبير ومعهم أمير الجباية ومفتش عام الجيش. وعلى يساره وزير الدولة الأول، ثم أمراء المماليك، وعلى بعد مسافة قليلة يقف الخصيان أو الطواشي مكتفي الأيدي. كان مثل هذا الديوان يعقد كل يوم ثلاثاء وخميس من الأسبوع، وعندما يخرج السلطان ممتطياً فرسه كانت ترفع فوق

رأسه مظلة كبيرة، وكانت أطراف عمامته المطرزة بالذهب التي كتبت عليها جميع ألقابه تتماوج مع الهواء وراءه.

بهذه الأبهة كلها من العظمة والقوة سار في مقدمة جيشه السلطان الغوري من القاهرة لمقابلة العثمانيين. كان عدد المماليك ممن عم في المرتبة الأولى فقط ١٣٠٠٠ غير الجلاب والقرصان، وعند وصوله إلى سوريا انضم إلى جيشه متطوعون من المقاطعات بقيادة حكامهم ومحاربون من جبل لبنان بقيادة التنوخيين، والمعنيين، والشهابيين. فتقابل الجيشان على سهل دابق بالقرب من مدينة حلب في ٢١ آب (أوغسطس) سنة ١٥١٦. والمعركة لم تكن طويلة ولا دموية بينما خسارة المماليك لها لم تكن ناتجة عن ضخامة مدفعية العثمانيين بل عن تخاذل الجلاب الذين اعتقدوا خطأ أن السلطان فضل عليهم القرصان. وهكذا، فإنهم لم يتحركوا من أماكنهم بل أداروا ظهورهم للمعركة بدلاً من أن يشاركوا فيها. والسلطان غوري الذي كان يعتمد على إخلاصهم، والذي كان قد أحب أن يؤخرهم حباً بهم، وحرصاً عليهم، فقدّم القرصان إلى الخطوط الأولى، إذ كان هؤلاء من المرتزقة غير المنضبطين ومصدر شغب في كثير من الأحيان، فأحب أن يضعهم في الموقع الخطر عند بدء الهجوم ليتخلص منهم. والجلاب الذين لم يكونوا على معرفة بذلك ولا خطر لهم هذا في بال، اعتبروا هذا التدبير مجحفاً بحقوقهم فامتنعوا عن المشاركة في المعركة. وأكبر هذه الخسائر وقعت في صفوف القرصان الذين قتل منهم ألف رجل. وهكذا هزم الجيش المصري، والسلطان إبن الثمانين قضى نحبه بالقرب من بركة ماء بعد أن تولاه الخوف، بل ربما كان قد قتله أتباعه وخاصته من البكوات. وهكذا فإن الضربة التي أعدها لتنزل بالقرصان، كلفته حياته وعرشه. وكنتيجة لهذه المعركة فإن حلب وسوريا كلها ضاعت من يد مصر.

وبعد الإستيلاء على حلب تقدم السلطان سليم الأول إلى حماه، (ابيفاميا القديمة)، وإلى حمص، (أميسا القديمة)، وبعد توقف قصير دفع بجيوشه إلى دمشق في الوقت الذي وصلت إليه الأخبار أن بكوات المماليك في تلك المدينة لم يتوصلوا إلى إتفاق على من سيخلف السلطان الغوري فغادروها إلى القاهرة في ٢٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٥١٦. وعند نهاية هذا الشهر شوهدت الأعلام العثمانية تخفق فوق المصطبة، وهي من ضواحي دمشق. بعد توسط قام به شاهر بك حاكم حلب السابق، لإقناع الأمير ناصر الدين تنوخ

الذي أوكل إليه المماليك حماية المدينة بالإستسلام، وهذا كان بعد وصول السلطان سليم الأول الى المصطبة بإثني عشر يوماً، فتقدم سليم إلى دمشق بعظمة الفاتح المنتصر، وأقام له معسكراً في القصر الأبلق. وهناك تقبّل خضوع قادة القلاع الرئيسية في سوريا، وأمراء العرب وزعماء دروز جبل لبنان.

وبعد استكمال انتصاراته في مصر عاد سليم إلى دمشق في ٦ تشرين أول (أوكتوبر) سنة ١٥١٧. وفي هذا الوقت تقبّل خضوع قبائل الصحراء الذين لم يكونوا بعد قد اعترفوا بسيادته مثل بني إبراهيم وبني سويلم وبني سكر، وبني علطا، وبني عمرة، وبني سعد، وقد رفعوا إليه كتاب الأمان الذي يزعم رهبان دير جبل سيناء بأنه أعطي لهم من النبي. والأمير فخر الدين معن الأول، نزل من دير القمر قادماً إلى دمشق ليطلب التأييد والحماية من سيده الجديد. وسليم أنعم عليه بلقب شرف ونيشان وجعله حاكماً على لبنان من يافا إلى طرابلس بينما ثبّت الشهابيين في حكمهم في حاصبيا وراشيا.

ومن جراء هذا التقدير والعطف الذي أبداه السلطان سليم للعائلة المعنية ثبّت نفوذهم ومقامهم الرفيع في لبنان، ومنذ هذا الوقت أخذ ما كان يتمتع به التنوخيون من أسبقية وأولوية، يتضاءل إلى أن كان القرن السابع عشر واستطاع الأمير فخر الدين الثاني أن يضع كل منافسيه في الظل، وهكذا تقلّص وجود تلك العائلة الدرزية التي استمرت طوال سبعماية سنة، في عهد المسلمين، والفرنج، والمصريين، تغطي لبنان بهيبتها، واعتدالها، وكان تحررها هذا ما أبقى مكانتها موضع افتخار واعتزاز استحقتها بشهرتها وحسن تصرفاتها لدى كل الطوائف المسيحية والمسلمة التي تسكن لبنان هذا الجبل الذي بفضل سياستها أصبح يعرف بجبل الدروز.

أصبح الآن التنظيم المالي لسوريا، ووضع الخرائط الجغرافية والتخطيط الشامل للبلاد في جميع أقسامها من أولى اهتمامات السلطان سليم. فأسندت الأمور إلى موظفين ذوي خبرة. وفرضت ضرائب أميرية بمبالغ محددة يدفعها سنوياً الملاكون في لبنان، وهذه الضرائب على الأملاك لا تزال أساس الدخل للدولة، مع العلم أنه ارتفع في وقتنا (١٨٥٣) إلى ثمانية أضعاف ما كان عليه وقد كان آخر عمل له في دمشق هو تدشين جامع كان قد أنشىء بناء على أوامره على ضريح شيخ من شيوخ الإسلام العظام هو محي الدين العربي. فانصرف مشايخ الدين إلى إقامة الإجتماعات لقراءة القرآن وشرحه في

قاعدته الفسيحة، وخصصت له اعتمادات لإطعام الفقراء الذين كانوا يفدون إليه يومياً. والسلطان سليم بعد أن أسند حكم المدينة إلى (الأذربندي) الغزالي رئيس إحدى العائلات العربية الرئيسية فيها، توجه إلى حلب ثم منها إلى القسطنطينية التي وصل إليها في آب (أغسطس) سنة ١٥١٨ بعد غياب ثلاث سنوات عنها تمكن خلالها من ضم كردستان، وسوريا ومصر إلى الأمبراطورية التركية.

إنه من الطبيعي الإفتراض أن النظام الإقطاعي الذي كان معمولاً به في لبنان في الوقت الذي تم فيه الغزو العثماني، والذي كان من مراميه الرئيسية خلق النزاع والفتنة والشقاق كان معداً لأن يمكن الحاكم التركي من نشر قوته ونفوذه. وسليم وجد بكل تأكيد أولئك الزعماء الذين تبنوا دون تردد ما كان يهدف إليه؛ فالمنازعات الإقطاعية ثارت في صفوف العائلة التنوخية وتمخض عنها فرعان: علم الدين وجمال الدين وهما اللذان يرجعان في الأصل إلى أميرين يحملان هذين الإسمين، تحت تسميتين إحداهما اليمنية التي كانت تبدي عداءها لا للمعنيين فحسب، بل أيضاً لقادة تلك العائلة العربية الكبيرة التي منها انحدروا، وكانوا يقتنصون كل مناسبة تلوح لهم لإظهار شعور الحقد والعداوة لها، والثانية القيسية التي يعادونها.

ومقاطعات كسروان، والكورة، وجبيل، والبترون مع كونها مأهولة بالموارنة، اعترفت بسيادة العائلة التركمانية آل عساف، بينما المرتفعات الأخرى من لبنان في تلك النواحي ومنها العاقورة، ووادي علما، والمنيطرة كانت تحت حكم العائلة المتوالية آل حمادة وهي فصيلة من الشيعة تعود بالأصل إلى قائد يدعى حماده كان قد أخفق في محاولة قام بها ضد ملك بخارى، فهرب مع بعض أتباعه أولاً إلى جبل الهرمل، ثم شمالاً إلى بعلبك ومن هناك توسعوا في تلك الأرض وبلغوا مبلغاً كبيراً من القوة والأهمية تحت سيادة أمراء آل عساف.

والتركمان كانوا ممن وضعهم السلطان بيبرس بين نهر الكلب والبترون ليحولوا دون التلاقي بين الموارنة والفرنج. كان مقرهم الحصين في غزير حيث بنى أمراء آل عساف جامعاً. ورغم المقاومة الشديدة التي أبداها الموارنة في مواجهة الغزوات التي كان يقوم بها زعماء المماليك في معظم القرن الرابع عشر، فإنه تبيّن أنهم في النهاية انصاعوا إلى قبول حكم آل عساف المتسامح - ومثلهم كثير من العائلات تركت معاقلها في الجبال وأوجدت

لها مقراً في عرمون والفتوح. فالعائلة حبيش جاءت من جبيل إلى غزير نفسها. بينما لم يقتصر هذا التوافد على المتاولة كما ذكر سابقاً بل كان هناك مسلمون سنة ودروز طلباً للعيش في ظل الأمن والعدالة جاؤوا مع عائلاتهم من مناطق بعيدة إلى الجديدة، وريفون، واختار الدروز المتن حيث لا يزالون إلى يومنا هذا!.

وفي سنة ١٥٩٢ انقرضت عائلة عساف بعد حكم دام ٢٣٢ سنة، وحلت محلها العائلة التركمانية آل سيفا التي امتزجت مع آل عساف بالزواج وهي عائلة كانت تعرف قبل ذلك بالمقدمين، في المقاطعات المعروفة ببشري. كان رئيس العائلة يحمل لقب باشا منحته إياه الدولة وأعطته مدينة طرابلس التي أقام فيها مقره حاكماً من قبل الدولة التركية. هذه التدابير التي بعد مضي وقت قليل من اتخاذها كانت بداية لتطاحن بدأ واستمر بعنف متفاقم بين يوسف سيفا باشا الذي يدعم مركزه حافظ باشا الوالي في دمشق، والأمير فخر الدين المعني الثاني الذي كان في هذا الوقت قد ظهر في الساحة، واشتهر بشجاعته وجرأته، وبدا مصمماً على أن يجعل من نفسه سيداً للبنان والحكم الإقطاعي، ومعارضاً لدولة مستعمرة كانت بأطماعها وجشعها قد أثارت الشعور بالكراهية لها، وكان من ضعفها أن لجأت إلى بث التفرقة بين زعماء الجبل ممهدة بذلك لانتفاضة شعبية، مع غرابة هذا التعبير، والأتراك كانوا لقرنين ونصف القرن قد شددوا في التهيئة لها عابثين مستهترين بمثل هذه المنازعات التي كانت المحرك لحكمهم (وهذا كان كل ما يستطيعون فعله) والتي لولا محمد علي، الذي ملأ الفراغ وأوقف هذه التصرفات الدنيئة، اللاأخلاقية، لكان لبنان، بسهوله وجباله، تدنّى إلى أقصى درجات الفاقة والإنحطاط.

الفصل السادس

مقتل ٦٠٠ شيخ درزي في عين صوفر من قبل الأتراك ـ الأميران فخر الدين ويونس عند أبي نادر الخازن ـ عودة الأميرين إلى عبيه إلى عند خالهما الأمير سيف الدين التنوخي ـ معركة جونية ١٦٠٧ ـ حصار فخر الدين لدمشق بمساعدة علي جنبلاط ـ ١٦١٤ الجيش التركي لمحاربة فخر الدين ـ فخر الدين يرحل إلى إيطاليا ـ أمّ فخر الدين تتوسط لدى الحافظ ـ الأمير علي بن فخر الدين وانتصاره وتوزيع البلاد على الإقطاعيين ـ وصول فخر الدين إلى إيطاليا والترحيب به ـ رفض فخر الدين اعتناق المسيحية مقابل إعطائه ملكاً.

الأمير فخر الدين وأخوه الأمير يونس صرفا أيامهما الأولى تحت سقف الشيخ أبو نادر الخازن الماروني الذي أسندت إليه أمهما العناية بهما لإنقاذهما من إنتقام إبراهيم باشا الذي كان قد أرسل في سنة ١٥٨٨ من قبل الباب العالي ليحقق ويلقي القبض على المسؤولين عن سرقة قافلة كانت تحمل الأموال للخزينة أثناء مرورها في لبنان وهي في طريقها من القاهرة إلى القسطنطينية، وقد كان للتصرف الخاطىء الذي أقدم عليه هذا الموظف التركي الغادر، أن انتشر الرعب في كافة أنحاء الجبل. إذ ما كان منه هو أن قتل ستماية من مشايخ الدين العقال الدروز، الذين جاؤوا إلى قرية عين صوفر لتقديم التحية له، وعين صوفر هي قرية تقع على طريق دمشق وفي منتصف الطريق بين بيروت وسهل البقاع فإنه بدلاً من الترحيب بهم أمر جنده فطوقوهم وقتلوهم عن آخرهم فلم يسلم منهم أحد.

كان آل سيفا، على غير ما كان عليه من مرونة من سبقهم، إذ لم يتبعوا سياستهم العادلة، فأحكموا الضغط على المسيحيين وعاملوهم بمنتهى الشدة والقهر، وقد تبيَّن للأمير فخر الدين أثناء إقامته بينهم، شعورهم بعدم الإرتياح، إذ كانت روح عدم الرضى تعم سكان كسروان، فرأى في ذلك حافزاً يعطيه القدرة على تحقيق مطامحه في التوسع، وبالإضافة إلى هذا التململ العام بين السكان، تذكَّر الأمير فخر الدين، ما كان لجده في الأمس القريب من قوة وضعها بين يديه السلطان سليم الأول، أضف إلى ذلك ما كان يرتكبه آل سيفا من تجاوزات وتحد، وما وقع من تطاول وانتقاص من حقوق عائلته بالإعتداء على ممتلكاتهم وامتيازاتهم.

لذلك فإنه قبل أن يستقر به وبشقيقه يونس المقام عند خالهما الأمير سيف الدين التنوخي في عبيه، قرر أن يدير ظهره إلى والي طرابلس ويحرض سكان الجبال على موظفي حكومة يبدو من تصرفاتها ما يهدد لبنان، ويدفع به إلى منازعات دموية مدمرة.

وفي سنة ١٦٠٧ كان لمعركة جونيه الحاسمة بين فخر الدين الثاني ويوسف سيفا

نتيجة ظاهرة هي وضع منطقة كسروان برمتها بين يدي الأمير الذي لم يُضع وقتاً في التقدم إلى بيروت والإستيلاء عليها، ثم إيكال أمر الحكم فيها إلى الأمير منذر التنوخي. ولدى عودته بعد غياب سنة صرفها في تنظيم الأمور في المقاطعات المارونية بالتعاون مع الشيخ أبو نادر الخازن الذي جعله الحاكم المحلي للمنطقة؛ تقدم فاستولى على صفد التي كانت حتى ذلك الوقت، معقلاً فوق بحيرة طبريا، ومن هناك تقدم إلى عجلون وحوران ليخمد نار الفتنة بين القبائل العربية، مغتنماً بحماس كل مناسبة لتوسيع نفوذه وشهرته.

بقي الباب العالي غير مبال بتصرفات الأمير الطموح حتى سنة ١٦١٣ عندما قام فخر الدين بدعم علي جنبلاط في حلب، لدى قيامه بانتفاضة ضد السلطان، ثم السير معه متدافعين لحصار دمشق وإجبارها على استسلام غير مشروط، ودفع جزية مقابل فك الحصار عنها، فرأت الدولة المستعمرة أنه لم يعد بإمكانها الوقوف موقف المتفرج الذي لا يعنيه الأمر، وهي ترى ما يحيق بها من تحقير، لذلك أخذت أشد التدابير بالسرعة الممكنة لوضع حد لعامل من عمالها تجرأ عليها، وإجباره على الرجوع إلى أحضان الطاعة. وفي مطلع سنة ١٦١٤ جمعت جيشاً قوامه ١٠،٠٠٠ جندي بينهم ٢٠٠٠ من الإنكشارية المنتخبين والباقين أكثرهم من الأكراد، وضعتهم تحت قيادة الحافظ أحمد باشا، ونشرتهم حول مدينة دمشق للقيام بالخطوة الأولى، في التحضير بمنتهى القوة لمعركة تجعل سلطة السلطان مطاعة في لبنان. إذ كانت في ذلك الوقت، سلطة وسيادة الأمير فخرالدين الثاني معروفة ومعترف بها من جميع العائلات الإقطاعية في الجبل، وكانت تخشى أنه إذا استطاع أن يبقيهم في ظل علمه، فإن النزاع الذي يوشك أن يندلع ستكون نتائجه تثبيت سلطته.

غير أن تضارب المصالح وعلى الأخص اختلاف المذاهب كانت هي الأسباب الرئيسية التي تحول دون نمو الشعور الوطني، بل استحالة ظهوره، بين سكان لبنان. أضف إلى ذلك الخلافات الصغيرة والتحاسد القائم بين الأمراء والشيوخ، هذه عملت كلها، دون استثناء، على جعلهم فريسة سهلة المنال لحكامهم الأتراك الفاقدي الضمير، بالإضافة إلى خلاف نشأ بين الأمير علي شهاب وشقيقه جعل الأمير أحمد شهاب يترك حاصبيا ويجعل مقره في راشيا، وقد وقف الأمير فخرالدين إلى جانب الأول وتبني وجهة نظره، بل زيادة على ذلك، بارك زواجاً تم بين ولده الأمير علي، وإبنة الأمير علي شهاب.

هذه الحوادث الطفيفة العادية مع ما كان يحصل من وعود مغرية يعطيه إياها الحافظ من جانبه بأن يجعله حاكماً على وادي التيم والقرى المجاورة، كانت تبدو كافية لأن تقنع الأمير أحمد شهاب بتبني قضية السلطان. ثم إن عائلة حرفوش المتوالية من بعلبك التي كانت على علاقة ممتازة من الصداقة مع الأمير فخر الدين تنكرت له. وفي الوقت نفسه وقف اليمنيون على استعداد لتلقي الإشارة الأولى ليجاهروا بعدائهم المزمن له.

أما الأمير فخر الدين الثاني من جهته، فقد وضع معاقله كلها في حالة دفاع، على الخصوص قلعتي بانياس والشقيف، بينما وضع فرقة قوية من السكمانية، أو الجنود غير النظاميين، عند جسر المجامع على نهر الأردن ليراقبوا تحركات الباشا في ذلك الإتجاه، كما أنه أرسل في الوقت نفسه رسله إلى الحافظ، عارضاً عليه أي مبلغ يطلبه من المال لقاء وقف قتال محتمل الوقوع. ولكن الحافظ رفض هذا العرض، والأمير أحمد شهاب قام بعد قليل بالإنقضاض على مواقع الأمير المتقدمة على نهر الأردن ومزقها تمزيقاً. كان الأمير في هذا الوقت قد انتقل إلى صيدا، ومن هناك بعث الرسل يستدعي الأمراء والشيوخ من ذوي المكانة، إلى اجتماع عام قرب الدامور. غير أن هذا النداء لم يلاق آذاناً صاغية والذين لبوه لم يكن تجاوبهم مشجعاً بل أظهروا تقاعساً غير منتظر.

كان موقفهم هذا يرجع إما إلى عدم وجود ثقة أو لتخوّف من الإستعدادات الهائلة التي كانت تعد ضدهم، وقد رأوا أن اللجوء إلى تلطيف الجو وطلب الرضى أجدى من المقاومة. كان موقف هؤلاء مستهجناً ومستنكراً من الأمير فقرر العودة إلى صيدا وصمم على أن لا يبقى ليشهد إجراءات تحقير وإذلال لم يكن في الإمكان تلافيها، تلك النتائج المحتملة التي يحول تقاعس أنصاره دون تلافيها، فاتخذ قراره الذي لم يسبق له مثيل، بمغادرة البلاد ليجد له مكاناً في أوروبا يلجأ إليه.

أما شقيقه يونس فقد توجه إلى دير القمر واستعد لاستقبال العاصفة بما لديه من إمكانات. وكان الحافظ قد تقدم لوضع حصار على بانياس وقلعة الشقيف، وتمكن من الإستيلاء عليها بهجوم قوي. وهنا اتخذت أم الأمير فخر الدين تدبيراً حكيماً فاصطحبت ثلاثين من العقلاء الدروز، وحملت معها الهدايا من الأموال والخيول وذهبت لمقابلة الحافظ عارضة عليه بسخاء تحييد الجبل من كارثة ماحقة تهدده، مبلغ ٣٠٠٠٠ ليرة. وهو مبلغ باهظ في هذه الأيام. وفي الوقت نفسه حاول التنوخيون إفتداء المناصف والشوف بدفع

مبلغ ٢٠٠٠ ليرة. وقد قبل الحافظ هذين العرضين، كان ذلك في مطلع الشتاء فانسحبت جيوشه عائدة إلى دمشق. وفي مطلع ربيع سنة ١٦١٥ سار إلى قب الياس وتقدم عبْر السهل والجبل إلى سهول الباروك.

كان الأمير يونس المعني، في هذه الأثناء، قد تمكن من استنفار قوة كبيرة من الشوف، بعد أن اجتمع بالأمراء والشيوخ وألقى فيهم خطبة مثيرة حاثاً إياهم على مقاومة الظلم الذي يحيق بهم إلى أقصى حدوده، مثيراً فيهم روح العنفوان مبيناً لهم أن الموت أفضل من الرضوخ لدولة تتنكر لوعودها وتعهداتها، إنها لا هم لها إلا الإثراء على حساب البلاد المنتهكة. وهكذا فأمام شجاعة المعنيين وصمودهم تراجعت الجيوش التركية إلى البقاع. ومع هذا الإنتصار انصرف الأمير يونس إلى إعادة قلعة بانياس لما كانت عليه من حصانة، واليمنيون برفقة الشيخ جنبلاط، وكل أتباعهم في الشوف هبطوا إلى قب الياس حيث استقبلهم الحافظ بمنتهى الحفاوة ومنحهم أوسمة شرف.

والحافظ، رداً على هذه الإنتفاضة في الجبل، استأنف تحركاته في لبنان فتقدم دون أن يلاقي أية مقاومة إلى عبيه، ودير القمر، فأحرق قصور التنوخيين والمعنيين وهدمها إلى الحضيض، وأتلف كل ممتلكاتهم. فاجتمع المعنيون في مرج بسري وهو واد بين المختارة وصيدا وهناك قرروا وضع حد للغازي. كان الحافظ واثقاً من نجاحه، فتقدم إلى ذلك المضيق، مرج بسري، على رأس ٢٠،٠٠٠ من الرجال تسندهم قوات يوسف سيفا من طرابلس. غير أن المعنيين انقضوا عليهم بقوة لا تقهر قوامها فقط ١٢٠٠ محارب فهزموا الجيش التركي ومزقوه، فهرب طلباً للنجاة في كل الاتجاهات. بينما تراجع الحافظ بمنتهى السرعة إلى دمشق.

وفي السنة التالية استبدل الحافظ بوالٍ آخر هو محمد باشا، وهذا اعتنق السياسة التي كان الأتراك قد مارسوها دائماً وهي ما كانوا يعتقدون أنه الأجدى وهي ترمي إلى جعل الإنقسامات الحزبية في الجبل بين أبنائه وسيلة لإخضاعهم وإضعافهم. فأعلن قبوله عرضاً للأمير علي معن بأن يدفع للحكومة ضريبة سنوية تعادل ضعف ما كان يدفع لسلفه بمقابل تعيينه حاكماً على لبنان. في هذا الوقت كانت الخصومة بين الحزبين: اليمني(*)

(*) قيس ويمن إسمان لقبيلتين كبيرتين في اليمن جنوبي الجزيرة العربية.

والقبسي على أشدها طوال سنتين وكان الأتراك يقفون موقف المتفرج وهو ما أشارت به فطنتهم، متطلعين لإخضاع لبنان مبتهجين لرؤيته يحترق على أيدي بنيه.

وفي سنة ١٦١٧ جرت أربع معارك في يوم واحد: واحدة في الدامور، والثانية في عبيه، والثالثة في عيندارا، والرابعة في أغميد، هذا بالإضافة إلى هدم القصور والمساكن والقرى في طول الجبل وعرضه، مما يؤكد العداء المستحكم بين الأحزاب واستشراء البغضاء التي أراد لها الأتراك أن تمتد وتقوى بينهم وفي النهاية تحرقهم جميعاً وتعيدهم إلى أحضان الطاعة. وفي النهاية، ظهر جلياً انتصار المعنيين والتنوخيين، وقام الأمير علي بتوزع السلطات في أنحاء لبنان وإعطاء كل مسؤول صلاحيات كاملة وشرعية التصرف.

فبلاد بشارة، وتتألف من سلسلة جبال كان يقطنها في هذا الوقت (١٨٥٣) المتاولة وتقع إلى الجنوب من مدينة صيدا، أعطيت مع الشوف إلى عمه الأمير يونس، وبيروت وسهلها إلى الأمير منذر التنوخي، والرغب، والمناصف، والشحار إلى الأمير ناصر الدين التنوخي، والمتن إلى المقدمين أبي اللمع، ومرجعيون، والحولة، ووادي التيم مع حاصبيا وراشيا إلى والد زوجته الأمير علي شهاب، وصفد والشقيف إلى أمين سر والده حسين اليازجي، وكسروان ومايتبعها إلى الشيخ أبو نادر الخازن.

وقعت حادثة بعد قليل من الزمن، كانت كافية لإظهار ما كان عليه الأتراك من ضعف رغم ما يبدونه من مظاهر لعرض قوتهم، حادثة تكفي لتكون أنموذجاً من النهج الحقيقي الذي كان خير مثال ودليل على نزعاتهم. وهي أن حسين اليازجي لم يقبل بتولية الأمير علي. فذهب إلى دمشق وباستعماله الرشوة تمكن من الحصول من محمد باشا نفسه على إقرار ولايته. والأمير لدى معرفته بهذه الخطوة، التي أقدم عليها اليازجي أرسل قوة لاحتلال صفد والشقيف، وفور عودة حسين اليازجي مع جند من الأتراك لتثبيت ولايته، هاجمه جند الأمير علي بالقرب من جسر يعقوب على نهر الأردن، ففرقوا الحامية التي كانت معه وقطعوا رأسه.

وعندما كتب الأمير بذلك إلى الباشا، معرّفاً إياه بأن مرشحه قد قتل، أجابه الباشا «لبس لذلك أهمية عندي، إدفع لي المبلغ الذي جرى الإتفاق عليه مع اليازجي وهو ٥٠٠ ليرة ورشّح من تشاء» (كذا).

هذا النهج الغادر هو مصدر كل ما حصل من خيانات وغدر وخداع اتبعها الأتراك بدهاء للضغط على لبنان فنهبه، فتدميره، فقهره، طوال ثلاثة قرون...!

في هذا الوقت كان الأمير فخر الدين ومعه إحدى زوجاته، وإبنته، وستة عشر من خدمه، قد سافر إلى أوروبا، على ظهر قاربين كان قد استأجرهما، أحدهما هولندي والآخر فرنسي، لينقلاه وعائلته وأتباعه. كان تركهم صيدا بتاريخ ٢٥ تشرين أول (أوكتوبر) ١٦١٤ وكان وصولهم إلى لفهورن بعد هذا التاريخ بثلاثة وخمسين يوماً. والباخرة التي كان هو على ظهرها استقبلت بالتحية لدى وصولها إلى ذلك الميناء، ثم جرى التحقيق معهم لمعرفة من يكونون وإلى أين يقصدون. وقد أعطي الجواب الآتي: إن الأمير فخر الدين المعني من لبنان، هو القادم على ظهر المركب هرباً من غدر الأتراك، وهو يطلب الحماية من الفرنج، وبعد انقضاء مدة الحجر الصحي صدرت الأوامر من الدوق الكبير في توسكانا بأن يُصطحب الأمير ومن معه إلى بيزا.

كان استقبال الدوق له استقبالاً حاراً ولائقاً، فعيَّن له القصر القديم ليكون مقراً لإقامته، وكان لوجود هذا المشرقي العريض الجاه، ما استقطب اهتمام الطليان وانتباههم. فتوالت زيارات نخبة أبناء الشرفاء له، والإيلام للترحيب به، متنافسين بإبداء كل لطف واهتمام به، مما جعل الأمير ينغمس في تلك الرفاهية التي لم يتعودها في ما اعتاد عليه طوال حياته. وعند ورود رسائل إليه من ملك نابولي حاملة أحر مشاعر الترحيب به في نابولي، طلب الأمير من الدوق الكبير إذناً بالسماح له بقبول الدعوة الملكية، وبعد زيارة قصيرة إلى باليرمو نابع سفره إلى نابولي التي كان قد سبقه الدوق الكبير إليها، ولدى وصوله وضع في تصرفه قصر دوق، وعيَّن لمرافقته مترجمين ليطلعوه على كل ما هنالك من إنجازات فنية وعلمية مما هو موجود في ذلك المكان. وكان مراسلو القصر الملكي يأتون إليه يومياً لسؤاله عما يرغب وما يريده كائناً ما كان.

لقد تعاقبت الدعوات إليه بكثرة إلى درجة أنه لم يكن يتسنى له المكوث في بيته ساعة واحدة. أخيراً وجد نفسه محرجاً بما أحيط به من أبهة فقدم مختلف الأعذار لإعفائه من متطلبات ترحيب واستضافة حرمته من الركون إلى الراحة والإنصراف إلى خصوصياته. أولاً، إن دينه يمنعه من تناول لحوم يحضرها مسيحيون، ثانياً إن الإنصراف لهذه الحفلات من الإبتهاج والصخب، تحول بشكل محرج، بينه وبين موجبات الصلاة

وفروضها التي تشترطها الديانة المحمدية. وهذه الموانع التي أبداها الأمير، مع محظورات أخرى، تبين عدم إهتمامه بما يبديه الفرنج من اهتمام به أدت إلى تبريد حرارة الترحيب الذي أغدق عليه.

وفي أحد الأيام، قدم إليه بعض النبلاء مرسلين من الدوق الكبير ليزوروه ويلقوا عليه بضعة أسئلة متنوعة لم تكن سوى من قبيل الرغبة في الإستطلاع، فأثارت هذه في نفسه الحذر، والتخوف، والتحفظ، وهذه في طباع الشرقيين.

كانت الأسئلة كالآتي:

سؤال ـ إذا شئنا أن نقوم في غزوة إلى بلادكم فكم هو عدد الذين ينتظر أن يكونوا من جانبنا؟

الجواب ـ إنه سؤال لا أستطيع الإجابة عليه، وليس بإمكاني أن أكفل وجود رجل واحد، أما أنا فمعكم وتحت أوامركم.

س ـ ولكن إذا كان أهل لبنان لا يقفون إلى جانبنا ألا يبيعوننا الطعام؟

ج ـ أنتم تعرفون قوة المسلمين، وقوة بني عثمان، فإذا كنتم غير واثقين من أنه سيكون باستطاعتكم التغلب على هذه العقبات فإنكم لن تكونوا قادرين على تذليل كل الصعاب، إذ لا يجوز أن تعتمدوا على غرباء لتضمنوا الصمود.

س ـ كم عدد الجنود الذين كانوا تحت إمرتك في بلادك؟

ج ـ عندما كنت الحاكم في لبنان وكان الجميع خاضعين لأوامري كنت أستطيع تجنيد ٢٠٠٠ رجل دون أن أدخل في الحساب أولئك الذين ينتظرون في بيوتهم، أما الآن فوا أسفاه لا أحكم إلا على نفسي.

وبعد أيام قليلة تقلصت مخصصات الأمير إلى حد كبير ووجد نفسه مضطراً لمغادرة نابولي وقد اضطر في أحد الأيام إلى رهن حلى زوجته ليحصل على ما كان يلزمه لشراء الضروريات.

وعند عودته إلى بيزا كان مستوى معيشته يبدو عادياً بسيطاً ومعصوراً، ومع أنه لم يُهمل كلياً، فإن مباهج الترحيب التي كانت ظاهرة عند وصوله في المرة الأولى إلى بيزا، كانت قد تلاشت، كما كانت علاقاته مع الدوق الكبير قد أصبحت قليلة. ومع ذلك ففي أحد الأيام زاره القنصل الفرنسي حاملاً إليه رسالة من لويس الثالث عشر يدعوه فيها

إلى زيارة البلاط الفرنسي، عارضاً عليه في نفس الوقت التوسط بينه وبين السلطان، للحصول على عفو منه واستعادة بلاده. ولكن الأمير اعتذر عن قبول مثل هذا التدخل والوساطة مقدّراً، مع ذلك للملك الفرنسي، لطفه بأعظم ما يكون من اعتراف بالجميل. وكذلك فقد كانت هنالك مشاعر أخرى كريمة تنتظر موافقته وهي ما عرضه عليه ملك إسبانيا.

استدعي في أحد الأيام من قبل الدوق الكبير إلى حديقة القصر، فلبى الدعوة مصطحباً معه ناصر الدين شيخ الإسلام الذي كان صديقه الحميم ومرافقه، وعند مقابلة الدوق الكبير ورئيس وزراء ملك نابولي وهما يتمشيان معاً، اقترب الدوق الكبير من الأمير وأعطاه رسالة من فيليب الثالث يعرض فيها العاهل الإسباني بعبارات لطيفة دعوة الأمير لزيارة مدريد، واعداً بإعطائه حكماً على مقاطعة أكبر من تلك التي كان حاكماً عليها في لبنان ولكن بشرط اعتناقه الديانة المسيحية، وعلى ذلك أجاب الأمير «إني أشكر لجلالة ملك إسبانيا لطفه ومبادرته الكريمة نحوي، ولكني مع بالغ تقديري لهذه المشاعر، أؤكد أني لم آت إلى هذه البلاد لسبب ديني أو سعياً وراء عرش، يُعطى إلي، بل جئت إلى هنا لاجئاً من مظالم أعدائي». ثم وجه كلامه إلى الدوق الكبير قائلاً: «لقد توليت حمايتي واستضفتني طوال هذه المدة وأنا أشعر ببالغ الإمتنان والإعتراف بالجميل لك، إني مدين لك بما تكرمت به من لطف، فإن كنت لا تمانع في بقائي هنا، فإني دائماً رهن أوامرك، وإن كنت ترغب في إعادتي إلى بلادي فسيكون ذلك مدار سروري وغاية ما أرغب».

كانت قد انقضت سنوات خمس على وصول الأمير إلى إيطاليا، وكان من الثابت والمؤكد أنه قد أصبح غير راغب في البقاء بين الفرنج. وبعد هذه المدة الطويلة وصل مركب إلى ليفهورن، يحمل رسائل فيها ما هو للأمير، ومنها رسالة من محمد باشا والي دمشق يوليه فيها حكم لبنان، عندها طلب مقابلة الدوق الكبير ليستأذنه بالعودة. والدوق عند مقابلته، سأله عن الأخبار الواردة من المشرق. فأجابه «كتاب ملح من والدتي المتقدمة بالعمر، تستحثني بحق الحليب الذي رضعته من ثدييها أن أعود لتلقي على وجهي نظرة أخيرة قبل وفاتها».

وسأله الدوق «وأنت هل ترغب في العودة»؟

فأجابه الأمير « أنت أيضاً لك أم وتستطيع أن تقدر مشاعري ، وإني أعترف لك بأني لن أستريح ولن أكون مسروراً إلا اذا عدت ».

فأجابه الدوق « لن نبقيك ولن نمنعك من العودة ».

والأمير الذي سرّ سروراً بالغاً بالسماح له بالعودة، قام فوراً باتخاذ التدابير اللازمة لإعداد ما يقتضيه سفره، وذهب إلى ليفهورن (الميناء) ليستأجر مركباً له ولعائلته. وبعد أن أنزلها ومرافقيه إلى المركب، توجه هو ليأخذ مكانه ويقلع ففوجىء بالمسؤول في الميناء يوقفه طالباً منه جواز سفره. مثل هذا الإجراء لم يخطر للأمير ببال وقد قيل له بمنتهى اللطف إن مثل هذه الوثيقة يمكن الحصول عليها فقط من الدوق الكبير لدى رؤيته إياه.

وعند عودته إلى فلورنسا (البندقية) وجد أن الدوق يمانع في سفره، بحجة أن بقاءه مدة طويلة في إيطاليا، واطلاعه على الكثير من الأمور فيها كموارد دخلها، ومواقع أمنها، قد يجعل منه أداة خطرة في يد السلطان فيما لو رأت الدولة التركية أن تغزو بلاده. وبعد أن دعاه إلى الجلوس أجرى معه هذا التحقيق:

سؤال ـ إلى أين تريد أن تذهب؟

ج ـ إلى صيدا.

س ـ من الذي يتولى الحكم في لبنان؟

ج ـ ولدي.

س ـ كم عمره؟

ج ـ خمس وعشرون سنة.

س ـ هل تخشى شيئاً من ولدك أو أقاربك أو أهل بلادك؟

ج ـ لم أتركهم أعداء لي.

س ـ إن لم تكن خائفاً منهم ألا تخاف من السلطان؟

ج ـ كل ما أطلبه الحصول على الطعام واللباس، ورؤية والدتي وأقاربي وأنصاري، فإن هم لم يرحبوا بي ففي الجبال متسع، وإن لم تتسع لي الجبال، فالعالم أمامي واسع، وعلى كل حال أكون قد لبيت طلب أمي.

وبعد إطراقة قصيرة رد عليه الدوق قائلاً « أنصحك بالذهاب إلى القسطنطينية »

وعلى هذا أجاب « لو إني كنت راغباً في الذهاب إلى القسطنطينية لما كنت أتيت إلى هنا ». كان الدوق يرمي من وراء اقتراحه هذا التأكد فيما إذا كان الأمير يفكر بالذهاب إلى السلطان وإطلاعه على ما في إيطاليا.

وبعد فترة امتدت إلى بضعة أيام، أعلن الدوق في النهاية قناعته. وأرسل إلى الأمير جواز سفره. غير أن الأمير لم يشعر ضمناً بأنه بات واثقاً من الحصول على حريته، ولما كان تصميمه على الرحيل يزيده رغبة في التخلص من هذه الحالة من العبودية التي كانت قد أصبحت، لعدة أسباب مصدر قلق وإرهاق له، قرر أن يأخذ معه إلى المركب برميلاً كبيراً من البارود وضعه في عنبر المركب مجاهراً أنه في حالة قيام عراقيل جديدة للحيلولة دون سفره، فإنه سيقوم بتفجيره فيقضي على نفسه وعلى عائلته مفضلاً الموت على البقاء حياً في أرض إيطالية.

الفصل السابع

عودة الأمير فخر الدين إلى لبنان ١٦٢٠ ـ محاربته لآل سيفا ـ الدهاء التركي ـ سقوط عكار ـ زواج إبنة الأمير فخر الدين من حسن بك ابن يوسف سيفا ـ العودة إلى مهاجمة عكار ـ حمل حجارة عكار الى دير القمر ـ تعيين فخر الدين حاكماً على الجبل ـ غضب الحافظ ومحاربته لفخر الدين ـ اندحاره وأسره ـ مدلج الحياري أمير البادية، حياة البدو خيامهم وتقاليدهم ـ زيارة فخر الدين لهم ـ تقديم ألفي حمل جمل حنطة لدمشق ـ دفع مايتي ألف قطعة ذهبية لمراد الرابع ـ استياء الأتراك من نجاح فخر الدين ـ حصاره في نيحا.

كانت عودة الأمير إلى ربوع بلاده، مسقط رأسه في ربيع سنة ١٦٢٠ . وقد كان يومها الجو عاصفاً ، والبحر هائجاً ، حتى أن القبطان قرر إرساء المركب في أقرب مكان. غير أن العاصفة هدأت وأصبحت ميناء عكا صالحة للرسو فيها وعلى الأثر نزل الأمير وأتباعه إلى البر بعد غياب دام أكثر من خمس سنوات. وسرعان ما انتشرت أخبار عودته سالماً في كافة أنحاء البلاد. وخلال بضعة أيام توافد الأمراء والشيوخ من ذوي المكانة في لبنان إلى عكا حيث عقدوا اجتماعاً لهم، ومن ثم انطلقوا لتهنئة الأمير بسلامة رجوعه. كان ركب الأمير في طريقه إلى صيدا وكأنه عودة بعد انتصار ولدى وصوله إلى نهر القاسمية وجد هناك ولده الأمير علي الأمين على العهد، القادر على حمل المسؤولية والجدير بما له من شهرة وتوفيق وثروة. والأمير علي وضع في يدي والده كل ما كان لديه من سلطة وصلاحيات ومسؤوليات كانت قد آلت إليه في المدة الأخيرة بعد اضطرابات وثورات وانتفاضات محلية.

وإذ تمركز في صيدا في قصره، قام الأمير فخرالدين في أوقات فراغه بالتداول في شؤون مركزه الراهن والشؤون العامة. فقد كان الأتراك مبالغين في محاولاتهم لإخضاع الجبل: كان الحزب اليمني في هذا الوقت قد اندحر وانتهى أمره. بينما كان الحماس الذي تبديه الأحزاب، مذ أن عاد إليهم ليكون بينهم، كافياً ليحيي آماله ويقويها ويشعل نارها. إن أولئك الذين كانوا في الأمس أعداءه جاؤوا اليوم إليه يلتمسون صداقته. الحرافشة، والشهابيون وحتى آل سيفا هؤلاء الذين دفعتهم ضغائنهم إلى مشاركة الأتراك بالنهب والحريق، سعوا إلى طي صفحة الماضي بمجرد زيارة شخصية للأمير وتقديم الهدايا إليه كما هي العادة، من أفضل الخيول العربية الأصيلة. وكذلك كان أمراء عرب البادية بين حاشيته وقد قدموا من أماكن بعيدة من عجلون ومن جرش، ملتمسين عطفه وحسن ظنه بهم، وقد قدّم إلى جميع زواره كل ترحيب وشملهم بعطفه وكرمه. إلا أنه عندما

ظهر أمامه الأمير حسن سيفا فاجأه بهذه العبارات الجارحة «قل لأبيك لا نريد هداياه، بل نريد الأعمدة التي دمرها من قصرنا في دير القمر، ذلك القصر الذي أحرقه ودمره. إننا نريد الخيول والمواشي تلك التي وضعناها في رعايته في أيام حافظ باشا والتي نقلها إلى جملة ممتلكاته، نريد المال الذي استولى عليه من خدمنا الأوفياء وعمالنا عندما ذهبوا إليه يطلبون حمايته، هل يعتقد أنه يريدنا أن ننسى كل هذا مقابل إهدائه إلينا فرسين؟» وكانت تلك فرصة أتاحت للأمير أن يأخذ ثأرد كاملاً من خصمه الغادر الماكر.

كان آل سيفا يقيمون في أمان تام في معاقلهم الجبلية فوق طرابلس ووراءها، كما أنهم كانوا قد اكتسبوا منعة في هذه السنوات الأخيرة من صداقتهم الدائمة وتعاهدهم مع الحكومة المركزية في دمشق، كما وأنهم على ضوء الممارسات الإقطاعية أفادوا من العطف الذي أحاطهم، ليظهروا بمظهر من يتمتع بالمنعة والسيادة. وهذا ما حدا بهم في السنوات الأخيرة لأن يمتنعوا عن تلبية الطلبات السنوية للدولة ودفع الجزية للسلطان. وقد كانوا دائماً يختلقون الأعذار لإهمال هذه المطالب وصرف النظر عنها، وإذا كانت الدولة لم تسيِّر جيوشها ضد هؤلاء المحتالين فلأن عملها هذا يحتمل أن يكون في النتيجة عملاً مشكوكاً بنجاحه.

كما أن ذلك لم يكن متوافقاً مع نهج الأتراك، كما سبق وقلنا، في حكمهم لبنان، فالأسلوب الذي اختاروه لأنفسهم بأنفسهم، هو إثارة وتأييد روح العداء والمنافسة بين الأحزاب، إنها مصدر قوتهم الحربية والمالية. وإن الجيوش التي في الإمكان وضعها بين أيديهم إنما هي لحفظ التوازن، ولتعطي قوة، وما إلى ذلك كما تقضي به المناسبة، للفئة التي يفضلونها بصورة موقتة. وعملاً بهذا النهج الذي اعتبروه إنسانياً، فإن إعادة الإعتبار إلى الرجل الذي ظلموه دون نتيجة بعد أن عاد اليوم تدبير يساعدهم على حفظ حقوقهم. فالأمير فخر الدين المعني الثاني الذي منح ألقاب وصلاحيات الحاكم والقائد الكبير، أرسل الآن ليحطم روح الكبرياء التي أظهرها آل سيفا، ويجعلهم يتجشأون تلك الثروة التي نهبوها من المناطق التي تعرضت للخراب.

إن ضوءاً أخضر، أقل لمعاناً، كان يكفي لإثارة مكامن القوة في شخص كان نفيه عاملاً لإثارة قابليته وإشعال حماسه للحصول على القوة والسيادة. إذ لم تكد أوامر الدولة تصل إليه حتى دعا كل زعماء الجبل لجمع محاربيهم والإلتحاق بجيشه عند مصب نهر

إبراهيم (أدونيس قديماً) فاتساع الأرض وانبساطها في تلك البقعة، كان ملائماً لتجميع جيش كبير. وبعد أن ترك فرقة من جيشه لمحاصرة جبيل التي رفضت الإستسلام، تقدَّم مسرعاً إلى عكار التي كان آل سيفا قد أخلوها عندما وصل إليهم علم بالزحف عليهم. كان هؤلاء قد قرروا اتخاذ قلعة الحصن المنيعة مركزاً للمقاومة وإذ كانوا ينقلون إليها في جنح الظلام ما استطاعوا نقله من لوازم ومعدات، اعترضتهم في الطريق فرقة متقدمة من رجال الأمير وأجبرتهم على الهرب تاركين وراءهم كل ما كانوا يحملونه.

كان شتاء سنة ١٦٢٢ قد حلَّ. وكانت جبال عكار مغطاة بالثلوج. وكانت كذلك الطرقات غير واضحة المعالم وغير صالحة، وكان آل سيفا يتوقعون توقفاً مؤقتاً للمعارك. غير أن الأمير الملتهب حماساً لم تكن لتقف في وجهه حواجز فقد كان يعتبر أن كل يوم يضيع منه يؤخره عن الوصول إلى خصمه. والأمير كان، يسير محاطاً بجنوده، بينما الثلوج تتساقط مصحوبة بعواصف من زخات الجليد والمطر، لا يبالي بقسوة الطبيعة من أجل تحقيق غاية وبلوغ قصد، وكان يندفع مع حرسه المتقدم، صارخاً فيهم بصوته، سائراً أمامهم على قدميه، في كل منعطف خطر، إلى أن وصلوا إلى أسوار القلعة، قلعة الحصن.

وجنوده الذين نال منهم التعب كل منال، وتحت تأثير البرد القارس، كانوا في وضع غير ملائم للقيام بأبسط المهمات الحربية، فما بالهم وهم أمام مهمات شاقة كعمليات حصار، ولكن الأمير أخذ معولاً بيديه وحفر خندقاً. وهنا تولى الخجل الجنود، وواحداً بعد واحد اندفعوا للعمل وفي أقل من يومين وليلتين، انطلقت النار الغزيرة الموجهة أحسن توجيه على الجنود المحاصرين، وكانت المدينة تعد مقاومة يائسة، إذ كان آل سيفا تحسباً للحصار قد جمعوا آلافاً من أتباعهم ممن هم من المحاربين إلى الحصن. سقطت البلدة أمام الهجوم، وتقدمت صفوف المقاتلين إلى الأسوار. في الوقت نفسه كان الأمير يقوم بتفحص المواقع موقعاً موقعاً، متابعاً دورياته ساعة بعد ساعة، يجري التبديلات بين جيوشه بنفسه في خنادقهم، وهكذا تمكن من إحكام الحصار بقوة لا تقاوم، وإنه لمؤكد أن حرباً تجري تحت مثل هذه القيادة، سيكون من نتائجها تحطيم أية مقاومة حتى ولو كانت من على أبراج حصينة في قلعة أمنع من عش النسر.

هذا كان قد أملى على المدافعين اتخاذ موقف جديد، ففي اليوم الخامس من

الهجوم، رفع يوسف سيفا باشا راية الهدنة وطلب إجراء مفاوضات، متعهداً بأن يدفع كل الأموال الأميرية المتأخرة عليه للدولة وأن يدفع للأمير نفسه ألف ليرة. وقد قبلت هذه الإلتزامات ولكن بشرط أن تبقى جيوش الأمير في قلعة الحصن وأن تضع يدها عليها إلى أن يتم دفع المبالغ المشار إليها. في هذا الوقت عاد الأمير إلى عكار ليأخذ له قسطاً من الراحة. وكم كانت حارة تلك الإستقبالات الودية التي أفرزتها هذه الحرب بين الأمير ومنافسه. فقد تم الزواج بين إحدى بنات الأمير وحسن بك إبن الأمير يوسف سيفا وهو زواج جرى الإحتفال به بأقصى مظاهر الفرح والإبتهاج في عكار. كل شيء كان يوحي ويبعث على الإعتقاد بعودة الوفاق والسلام، لولا أن مناسبة تافهة عكّرت جو التصافي.

والمناسبة هي أن الأمير يوسف، الذي لم يكن قد تعرّف إلى الأمير فخرالدين شخصياً، ولا حدث له أن رآه من قريب أو بعيد، جاء إلى عكار ليقدم احترامه، وقد صدف أن كان إبنه حسن غائباً في الصيد، وعندما دخل الأمير يوسف إلى قاعة كان قد استلقى فيها الأمير فخرالدين في وقت القيلولة وبدا كأنه غاف، فلما رآه، (والأمير فخرالدين كان قصير القامة ضئيلها)، استدار نحو كنته التي كانت حاضرة معه وقال لها مشيراً إلى الأمير فخرالدين «أهذا هو أبوك! إني أستطيع أن أضمه إلى علاقة مفاتيحي وأضعه في جيبي». ولكن يبدو أن الأمير فخرالدين لم يكن في غفوة فسمع ما قاله، ونهض بغضب مسرعاً، وقبل أن يرد التحية ويتبادل عبارات المجاملة مع الأمير يوسف أمر بسرج حصانه ونادى على رجاله للإستعداد للرحيل. لقد جرت توسلات واعتذار وكل ذلك لم ينفع ولم يشفع. فإن العبارات التي صدرت وجدت لها محلاً عميقاً في نفس الأمير فخرالدين لما كانت تتضمنه من تحقير واستخفاف مريرين. وعندما أدار رأس فرسه جنوباً وزع على خاصته بياناً مكتوباً يتضمن هذه الأبيات من الشعر الشعبي:

نحنا صغار وفي عين العدو كبار
والحور أنتم ونحن للحور منشار
وحق زمزم، وطيبة، والنبي المختار
لعمّرك يا دير من حجر عكار.

وآل سيفا، إزاء ذلك، لم يقللوا من الإهتمام بما قد يصدر عن مثل هذا الغضب

الشديد من حقد، فلم يتباطأوا في أخذ التدابير والاستعداد لما قد يأتي به المستقبل من ويلات فقاموا بتحصين عكار وإعدادها للدفاع. وكذلك لم يكن الأمير ليؤجل أو يؤخر تنفيذ تهديده. فأسرع بإرسال رسوله إلى القسطنطينية وهو صديق حميم ذو نفوذ حاملاً معه ١٠٠٠ ليرة كرشوة يدفعها ثمناً لتعيين مرشح له في حكومة طرابلس كان قد اعتقله يوسف باشا سيفا، وفي الوقت نفسه قام الوزير الأكبر (الصدر الأعظم) بتعيين هذا الرسول حاكماً على اللاذقية.

وفي صيف ١٦٢٣ كان الأمير فخر الدين المعني الثاني يعد جيوشه لمهاجمة عكار، لأن المدينة كانت حصينة ومعدة إعداداً قوياً. ولكن بعد عشرين يوماً من المعارك المستمرة التي أظهر فيها، هو نفسه، معجزات من الشجاعة، سقطت قوة الدفاع عن البلدة وتحطمت كل مقاومة وتم الإستيلاء عليها. ومثل هذا العنف أحاط بالقلعة فهدمها وتركها ركاماً، وطرابلس، المدينة التي كان الحاكم عليها حليفاً له، فتحت أبوابها لاستقباله، وخرج الناس إلى ظاهرها ليشاهدوا الرجل الذي بلغت شهرته كل مسمع وجرى ذكره على كل لسان. كان من أولى إجراءاته إصدار الأمر باستئجار مركبين لنقل ما يقع عليه الخيار من الحجارة التي كان يزدان بها مدخل القلعة في عكار، إلى صيدا، محققاً بذلك ما أقسم على تنفيذه بحق آل سيفا كاملاً دون إسقاط حرف منه. ويمكننا في هذه الأيام (١٨٥٣) رؤية هذه الحجارة تزين الممر الذي يؤدي إلى منزل الحاكم في دير القمر (لعمّرك يا دير من حجر عكار) ثم بعد وقت غير طويل، تلقى الأمير الأوامر بالإنسحاب من طرابلس، تلك المقاطعة التي كانت خارجة عن اهتماماته فأعطاها لصهره الأمير حسن سيفا.

ثم اتجه الأمير فخر الدين بعد ذلك إلى متابعة زحفه إلى المناطق الواقعة في جنوبي سوريا. إلى جبال نابلس، وإلى حوران، إلى مقاطعات منطقة الكرك، فمنطقة عجلون، ثم إلى القدس نفسها، كلها خضعت لحكمه، ولم يتردد سكانها عن دفع الأموال الأميرية المتأخرة عليهم للدولة العلية، إلى أولئك الموظفين الذين كلفوا بجبايتها.

وفي سنة ١٦٢٦ وصل فرمان من السلطان مراد الرابع يعينه فيه حاكماً على الجبال من أورشليم إلى طرابلس، وفي الوقت ذاته يثبته حاكماً على البادية ومن فيها من البدو الذين كانوا يبسطون نفوذهم على المناطق التي تقع بين مدينة دمشق والبحر الميت. كانت

هذه الوثيقة التي تعطيه قوة ورتبة أشبه بما يعطى لنائب السلطان، مما لم يسبق أن أعطي مثلها إلى أمير عربي، مما أثار حفيظة الحكام الأتراك المحليين، وحدا بالباشا في دمشق إلى أن يجاهر بأنه لا يعترف بها، بل زيادة على ذلك أعلن أنه سيقاوم كل محاولة يقوم بها الأمير لبسط نفوذه على البشالق أو الولاية التي تقع ضمن دائرة سلطته. وهكذا لم يتوان الأمير عن إعداد قوة كبيرة في سهل البقاع، أقام لها معسكراً بالقرب من قب الياس.

ولدى سماع الباشا بذلك تقدم مع ١٢٠٠٠ من رجاله إلى الطريق الواقعة بين البقاع ودمشق، غير أن الشهابيين كانوا قد استولوا على عنجر والمجدل. ولدى زحف قوة الباشا عبر وادي الحرير، وجد نفسه، بغتة، في مدى سلاح قوات خصمه المتقدمة، التي لم يتأخر الأمير عن الإندفاع بجيوشه لمساعدتها ودعمها، مما رفع حدة القتال لتصبح حرباً شاركت فيها كل الجيوش، واستمرت بانتصارات متلاحقة لجيوش الأمير إلى أن وقع الباشا نفسه في الأسر بين يدي فرقة غير نظامية من أنصار الأمير، حملته إلى خارج أرض المعركة، إلى السجن.

عند هذا تراجعت الجيوش التركية بصورة عامة، ولم تكن الفرصة لتسنح حتى لرجل واحد بالنجاة والعودة إلى دمشق لو لم يصدر الأمير أوامره بإيقاف العمليات الحربية. لقد كانت مسؤولية هذا النصر أثقل عبئاً على ضميره من الإنكسار لو أنه حدث، وعند اقتراب الباشا من معسكر الأمير ذليلاً معفر الجبين، سارع الأمير ليقدم له كل مراسم الإحترام والخضوع ليرفع عنه ذلك الشعور بالخزي والخيبة. بيد أنه لم يتمكن من ضبط أتباعه المنتصرين من استغنام هذه الفرصة الذهبية التي أتاحتها لهم شجاعتهم، للعبث بأمتعة الباشا، والإستيلاء على ما فيها من أشياء ثمينة وهي مما كان قد دأب على حمله معه إلى ساحة المعركة كل مشير تركي، والذي في هذه المناسبة، كان أكثر من المعتاد، وأكثر إغراء من أن يستطيع المنتصر العفو عنه، ومع هذا فقد كانت الأوامر شديدة بإطلاق سراح السجناء وحفظ كل السلاح الذي جرى الإستيلاء عليه في المعركة، والأمير نفسه مع من كان يرافقه من الأمراء ساروا في ركاب الباشا وبمعيته إلى قب الياس.

وبعد أن استراح الباشا قليلاً استأذن الأمير بأن يسمح له بمقابلته، ولدى دخوله عليه وإبداء ذلك الخشوع والخضوع واللباقة التي يعرف كيف يمارسها الشرقيون عندما

يقابلون عظماً، وقف الأمير مكتوف اليدين قبالته، منتظراً أقل إشارة من سجينه. بينما كان هذا الأخير أمام المظاهر الوافرة من الخضوع يندفع دون إبطاء، وبقليل من الإحتفاظ برصانته ليؤكد للأمير صفحه ويعرض عليه صداقته. أثناء ذلك كان الأمير لا يزال واقفاً إلى أن طلب منه للمرة الثالثة الجلوس فجلس بتواضع. كان آل سيفا والحرافشة مع الجيش التركي، وها هو الباشا الآن يعتذر للأمير عما قام به بحجة أن هؤلاء كانوا السبب فيما حصل. وفي اليوم الثالث، انتقل الأمير والباشا إلى بعلبك التي كان الحرافشة قد سارعوا لإخلائها بعد أن تركوا حامية من السكمانية في القلعة. ولم يكد الباشا يصل إلى تلك المدينة حتى اجتمع رجال دمشق من ذوي المكانة ليقدموا جزيل اعتبارهم للباشا ويأخذوا التدابير التي تكفل إطلاق حريته، وهكذا بتدخلهم عولجت الأمور بما حقق لها نهاية مقبولة، فإن الباشا وافق على كل ما أعطي للأمير من صلاحيات فأعطي البقاع إلى ولده الأمير علي، وعجلون والسلط إلى الأمير حسين، وأعطي الأمير منذر التنوخي بيروت. وقام الأمير فخرالدين بإهداء الباشا إثني عشر فرساً من الخيول العربية الأصيلة بعدتها المزركشة وكيساً من النقود يتضمن ٣٠٠٠ قطعة ذهبية، وعند عودة الباشا إلى دمشق سار الأمير فخرالدين الذي كان قد دعي إلى بادية تدمر لتسوية الخلافات بين القبائل العربية، فأسند إلى أحمد باشا الشهابي أمر حصار قلعة بعلبك، وذهب إلى الأمير مدلج الحياري الذي استقبله بما هو أهل له من التكريم.

كانت المساكن التي يقيم فيها البدو خياماً من شعر المعزى، مرفوعة على أعمدة من الخشب أو قل من الحطب العادي، وهذه كانت بالطبع من المظاهر التي تتميز بها مساكن القبائل الرحل من البدو الذين يقصدون عادة المراعي التي تكثر فيها الأعشاب في مشارف لبنان. والمؤكد أن خيمة أمير في الصحراء تستدعي إعجاب الغرباء بفخامة أثاثها واتساعها، وليس بمستغرب عند من تعرف إلى أسلوب معيشتهم وتمتع بسخاء ضيافتهم المفرط، أن يجد عند أشرافهم كرهاً وإشمئزازاً للسكنى في مدينة تغص شوارعها بالناس. ويتعالى منها الضجيج إلى أن يصم الآذان في أسواقها أم متاجرها كما هي عليه الحال في المدن الشرقية.

إن الخيمة تنصب عادة على بقعة من الأرض لا يقل طولها عن ٩٠ متراً، يظهر في وسطها عمود المظلة التي تغطي كل المساحة ومنها غرف منفصلة عن مجلس الأمير، لسكنى

وإقامة عائلته، وتظهر في رأس العمود الذي تقوم عليه الخيمة كلة مطلية بالذهب يتدلى منها شعر أذناب الجيل. وتقام غرفة الضيوف في طرف هذه الخيمة وتكون مغطاة بالسجاد العجمي ومن أجوده صناعة وأغلاه ثمناً، على ثلاثة من جوانبها تجد متكأ أو ديواناً جميع مسانده محشوة بأجود أنواع الصوف، وعلى الأغطية تطريز من أجمل الصنع على مستوى من المتانة والثخانة تكفل تحمله كثرة الإستعمال وخشونة الإنتقال المستمر.

وما بقي من الخيمة مقسم إلى أقسام منها ما هو لتخزين المأكولات كالقمح والشعير والسمن إلخ، وهذا فيه كل ثروة الأمير.

ومن حوله إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه الرؤيا تسرح قطعانه من الغنم والجمال، ومعها الخيول الأصيلة من أفراس وأحصنة يمتطيها أمهر الفتيان يتلاعبون على ظهورها العارية وهي هادئة لينة العريكة، وكأنها تتعاطف مع دغدغة هؤلاء الصغار وملاطفاتهم لها، وتعترف بمسؤوليتها في جعل خطواتها متلائمة مع فرسانها هؤلاء بطيئة وهادئة. هذه الخيول هي نفسها التي عندما يمتطيها فارس يلقمها اللجام، ويستحثها في ميدان تنطلق بقوة وسرعة تتميز بها، فتجتاز الأودية والسهول وهي تطوي الفيافي طياً. هنا تبرز قوة هذا الجواد الأصيل الذي قال فيه المتنبي «أعز مكان في الدنى سرج سابح» وقال فيه امرؤ القيس:

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيل من علٍ

وقال فيه عنترة وشعراء الجاهلية الشيء الكثير واصفين سرعته المذهلة، فهو قيد الأوابد، يطوي الأرض طياً لا يخاف الصدام، في ساحة القتال ولو كانت الرماح كأشطان بئر في لبانه. فإذا شكا تحمحم وإذا اشتم رائحة غبار القتال ولو من بعيد وسمع أصوات الطبول وصياح الفرسان ضرب الأرض بقادمتيه حماساً.

وعندما يرخي المساء سدوله يعود المغامرون ليتجمعوا في حلقات تقترب رويداً رويداً من خيمة الأمير. وكل مساء يحمل معه أحاديث تلك المغامرات التي يقوم بها الرعاة وهي التي تجعل من رتابة الحياة في الصحراء بهجة متجددة يوماً بعد يوم، لا يقايض بها البدوي كل ما في الممالك من ثروة ومباهج. ومع فجر يوم آخر يتجدد مشهد مثير آخر. فعلى ثغاء الغنم وصهيل الخيول وخوار البقر ورنين أجراس الجمال يستيقظ الأمير من مهجعه، ويفترش سجادته ويجلس في باب الخيمة محاطاً بأولاده وعبيده وأصحاب المكانة

من رجال قبيلته. تظهر أمامه السهول المرصعة بقطرات الندى وكأنها جنّة مرصعة بالاستبرق وتهب عليه ريح الصبا منعشة تحمل أذكى عبير. يبهج النفس، ويخيم على تلك الربوع هدوء شامل بعد أن تغيب عن الأنظار القطعان التي يبتلعها الأفق البعيد طلباً للمراعي. البدوي هو إبن الطبيعة لا يعرف ولا يطلب من المباهج إلا ما تقدمه له ولا ينتظر العطايا إلا منها بما تجود به.

كل ساعة تصرف خارج هذا الجو الممتع، ما خلا ما قد تفرضه عليه أمور طارئة، ومفاجآت غير منتظرة، تضطره لقيادة القبيلة إلى حسم نزاع على مراع أو أخذ ثأر من عاد على حقوقه، هي مكروهة عنده وغير مقبولة، إن رؤية مدينة بما فيها من منازعات ومشاغبات ومهاترات، تلقي على تفكيره عبئاً لا يطيقه فيبادر مسرعاً إلى دنياه، إلى صحرائه حيث الحرية والهدوء، هرباً من حياة مصطنعة ومن صخب مجتمع لا يرى فيه متعة الحرية والصفاء. ففي صحرائه لا وجود لمغريات مثيرة، ومباهج مصطنعة، ومنازعات تثير في صدور المحاربين نار الحقد والبغضاء، إنه في الصحراء الواسعة يعيش مع أتباعه وإخوانه ويراقبهم بارتياح وهم يقودون قطعانهم إلى المراعي كل صباح ويعودون إلى خيامهم في المساء حاملين معهم أحاديث النهار المسلية عن المراعي والماشية. هناك في الصحراء، بعيداً كما هو واقع حاله، عن أي احتكاك بالغير مستقبح ومكروه، أو مداخلات تشمئز منها النفس، ومطامع شخصية، وعن كل تلك الملابسات التي ترافق حياة ساكن المدينة، يعمل ويعيش مع ما يتلاءم مع ميوله، وهذا كان يجعله أكثر رغبة واشتياقاً إلى العودة لأحضان الطبيعة، بعيداً عن أجواء تشقى فيها الإنسانية. وبكونه محاطاً دائماً بما يشعره بوجود كل ما هو بحاجة إليه في متناول يده، مشفوعاً بالعناية الإلهية، فإنه يتمنى لكل أبناء الإنسان حياة هنيئة رغيدة ويفتح لكل الناس، قلبه وبيته بكرم ومحبة.

وإذ وجد هذا الأمير أن كلّ محاولاته فشلت في الوصول إلى ترتيبات حبية مع بني فياض، طلب من ضيفه الأمير فخر الدين، محاربتهم، عارضاً عليه أن يقوم هو على رأس قبيلته بنفسه، ولكن فخر الدين رفض هذا الإقتراح؛ والزيارة التي كان المقرر لها يوماً واحداً امتدت إلى شهرين اثنين وزع أثناءها الأمير فخر الدين مائة قطعة ذهبية على العربان، ثم توجه إلى حمص فحماه، وعاد إلى بعلبك ليستأنف الحصار، متبعاً فيه الأساليب

الحربية الحديثة، فأقام متاريس من الخشب لحماية جنوده واستحضر المنجنيق ونصبه على الحائط الجنوبي من القلعة، ثم تنشيطاً للسكمانية، أقام خيمته بينهم في الخندق، وبقوة فائقة وشجاعة ونشاط، كان يصرف الوقت كله ليلاً ونهاراً مع رجاله. وعندما أصبح جاهزاً للقيام بالهجوم تقدمهم وسيفه في يده، إلى ثغرة في السور، واستطاع رغم المقاومة الشرسة زرع أعلامه المنتصرة على أنقاض القلعة المهدمة.

كان الشعور الذي ولدته هذه الحوادث بين زعماء لبنان، شعوراً بالنصر وبالتخوف من المستقبل في وقت واحد، وكان لتصرفاتهم عند وصول أحد آغوات الإنكشارية إلى بيروت قادماً من اسطنبول ما يكفي لإظهار ما ناءت تحته عمولهم من تخوف، وهذا الموظف الذي في الأحوال العادية لم يكن ليثير حوله أي اهتمام عومل بقدر كبير من العناية، وقوبل بمنتهى الخضوع وباحترام لم يكن ليقدم لصاحب أعلى سلطة في الدولة، فهؤلاء رغبة منهم في أن يغتنموا الفرصة لتبرئة أنفسهم عند مبعوث تركي (إذ كانوا يعتقدون أنه يحمل معه تعليمات سرية) من أية اتهامات لقيامهم باضطرابات ضد السلطان، كانوا يتخوفون إسنادها إليهم بعد تدخلهم في كل ما جرى من أحداث لم يسبق لها مثيل منذ الإقرار بشروط التبعية الإقطاعية، ولم يكن هؤلاء سوى أمراء معنيين وتنوخيين، قاموا على خدمة هذا الآغا وقدموا له من الهدايا ما كان فوق المعتاد، أكانت من الخيول الأصيلة أو من التحف الثمينة، مجاهرين على مسمعه العبارات الناطقة بحسن ولائهم ومنتهى طاعتهم.

وحده الأمير فخرالدين، منعزلاً ومنفرداً في موقفه من الآغا يبذل كل جهد لتوطيد علاقة طيبة مع الباب العالي مباشرة ليمحي بها أي انطباع سيء يمكن أن يكون قد تكوّن لدى أصحاب الشأن كنتيجة لما يمكن أن يكون قد نقل إليه من عملائه بعد الأحداث الاخيرة، متّبعاً تلك الأساليب المعتادة التي يعرفها تماماً، فأرسل (٢٠٠،٠٠٠) مايتي ألف قطعة ذهبية إلى صديقه في اسطنبول الحاج درويش، وطلب بجرأة تثبيت سلطته في سوريا. وقد كانت هذه الرشوة مقبولة وكافية كما كانت في الوقت نفسه، وهو ما دلت عليه أحداث لاحقة، لضخامتها، مثيرة وملهبة لجشع الدولة، وكانت في بوادرها الأولى، تشير إلى أن الحظ السعيد قد غمر ذلك المناضل، غير الهياب، من أتباعها وأسبل عليه النعمة والمنعة وأسباب السعادة.

الفصل الثامن

أسر فخر الدين وحمله إلى القسطنطينية ـ ظهور الأمير ملحم وانتصاره على الباشا وعلي علم الدين ـ تخوّف القسطنطينية من عودة المعنيين للحكم ـ إعدام الأمير فخر الدين وولديه.

في سنة ١٦٢٧ صدر فزمان سلطاني يُعين بموجبه الأمير فخر الدين المعني حاكماً عاماً على الجبل كله، من حلب إلى أورشليم، ويلقبه «بسلطان البر» ويمنحه صلاحيات مطلقة لفرض الضرائب، وشق الطرق وتعبيدها، وإنشاء الحصون والقلاع والمعاقل والثكنات، كما يرى هو لازماً وضرورياً في نطاق حكمه. أمام هذا التفويض ماتت روح الحزبية، وصمت الحاسدون، فالأمير بات الآن بما أعطي له من صلاحيات وامتيازات مقصوداً ولم يعد محسوداً، فاجتمع إليه الأمراء من كل حدب وصوب وكان أن قام على رأسهم بجولة واسعة يتفقد بها الجبل، كان ركبه شبيهاً بركب ملك يتنقل في أنحاء مماكته - من إنطاكية إلى غزة، ومن حماه إلى الجزيرة، كان الموكب يسير ماراً بكل قرية وبلدة ومدينة، وكذلك فإن القلاع الرئيسية مثل قلعة بانياس وقلاع الشقيف، وبعلبك، وجبيل جرت فيها أعمال الترميم والإصلاح والتدعيم، بينما أنشئت قلاع أخرى في إنطاكية بين حلب واللاذقية، وكذلك في بيروت أقيم برج لا يزال إلى يومنا يعرف «ببرج الكشاش».

كان بذلك يقوم بتجربة أثبتت كل المحاولات العصرية عدم جدواها، فبنى قلعة في صلخد بقلب حوران بقصد الإشراف والعمل على تنظيم أبناء تلك المناطق غير المنضبطة.

ولما تبيَّن له، أنه كان هنالك نقص في المواد الغذائية في دمشق أمر بنقل ٢٠٠٠ حمل جمل إليها لسد عوز الأهلين، والبدو، شعوراً منهم بالخوف من سطوته، أو إعجاباً بقوته، لم يتوانوا عن تلبية رغباته فقدموا المطلوب، ولدى اقترابه من دمشق هرع المتنفذون والوجهاء والموظفون فيها إلى استقباله والترحيب به، ولم يتضح إذا كان الباشا التركي قد ظهر في هذا الجمع الذي كان يستقبله بالترحيب والتصفيق والأهازيج، غير أنه من المؤكد أن هيبة حضوره أو سلطته - لو أنه حضر - لم تكن موجودة ولم تظهر، فقد حجبها نجم الأمير اللبناني.

لم يكن من شيء عند الموظفين الأتراك خصوصاً في المدن الكبيرة، أبهج من الضجة التي يثيرها خفض أسعار المواد الغذائية. إذ كان من أجدى وسائلهم الإحتيالية مع الشعب تخفيض الأسعار بمجرد الأمر بذلك. فإنزال الخسائر والخراب بمربي الماشية، والمزارعين، وأصحاب رؤوس الأموال، بتخفيض فوري كاسح للأسعار، كان في نظرهم ذروة الحكمة السياسية. لهذا فلم يكن غريباً أن يكون الأمير فخرالدين قد تفوّق بمنافسته على من سلفه بهذا النهج، عندما طلب منه أن يستعمل سلطته في إصلاح الإدارة المالية. لقد نودي باسمه من مآذن الجوامع في دمشق أن رطل الخبز (٢،٥ كلغ) يجب أن يباع بمصريتين أي أقل من مليم (أصغر أنواع النقد عند الإنكليز).

وقد فسرت هذه المناسبة، بأنها ليست فقط عادة متبعة منذ القدم في التشريع الشرقي، بل مظهراً يبيّن نهج الأمير فخرالدين وموقفه، في هذا الوقت بالذات، إذ أنه كان لا بد من تدبير أو مبادرة لإظهار مدى الإستقلال التبعي الإقطاعي الذي توصل إليه هذا الأمير ذو الشهرة الواسعة، فلن نجد أصدق من المظاهر التي استقبل بها والنفوذ الذي كان له في دمشق إحدى المدن الإسلامية المقدسة التي هي في المرتبة الثانية بعد مكة عند السنّة وهي التي تضم بين جدرانها أكثر المسلمين السنّة تعصباً في المشرق.

وكائنة ما كانت الضرورات الملحة لدى الباب العالي لدفعه للقبول والموافقة على هذه الخطوة التي لم يسبق لها مثيل، يقوم بها أمير عربي بهذا القدر من حسن التصرف لتحقيق أهدافه في إحدى أكثر مناطق نفوذه أهمية، لا تبعد إلا قليلاً عن أبواب الكعبة، فإنه لا بد وأن يكون لذلك انعكاس على كبرياء حُط من قدرها، وشعور يثير أطماع الجشع التي كانت منذ وقت طويل قد رأت في لبنان أرضا خصبة لها، قابلة للتدمير والنهب؛ ولا كانت في الوقت ذاته الإدارة العامة التي ينتهجها الأمير فخرالدين قد وضعت في حساباتها تجريد الحاسدين من الحسد والكراهية اللتين أثارهما ارتقاؤه، ليس في صدور جميع موظفي الأتراك فحسب، بل أيضاً في صدور المحمديين من جميع المستويات والمذاهب.

إن عطفه ومحاباته للمسيحيين كان واضحاً ومعلناً، يرتكز على عاملين: عطف طبيعي، أو ضرورة سياسية. لقد كان الشيخ الماروني أبو نادر الخازن أمين سره وصديقه الدائم ومستشاره؛ وكل تلك المظاهر التي كانت ترمز لتحقيرهم والتي كانت قد أصبحت

مظهراً مميزاً للمسيحيين ألغيت، فأصبح شيوخهم وفلاحوهم في تلك المقاطعة يتمتعون بملء الحرية للإنخراط في الممارسات الحربية بمظهر حسن. إذ أصبحوا يزينون ملابسهم وأسلحتهم بالفضة ومختلف قطع الزينة الأخرى، وأصبحوا يقتنون الخيول الأصيلة وعليها السروج المزركشة، وتلك المقاطعات الجنوبية التي كانت تحت حكم المعنيين استقبلت زيادات كبيرة من السكان القادمين من جبيل، والبترون، وكسروان، هؤلاء المهاجرون أصبحوا فيما بعد المؤسسين للقرى المارونية التي نجدها في المناطق الدرزية في وقتنا (١٨٥٠).

هذه النقلة التاريخية تميزت بعودة ظهور الفرنج على الشواطىء السورية بسلام، فأقاموا لهم مؤسسات في حلب وصيدا وعكا وأماكن أخرى من جبل لبنان، وأنشأوا لهم علاقات تجارية مع السكان. وبعد خمس سنوات من التمرس بسلطة عليا مطلقة وجد الأمير فخرالدين نفسه مرة ثانية فريسة لغضب السلطان وهدفاً لتحركاته الحربية.

ففي سنة ١٦٣٢ تحرّك خليل باشا باتجاه حلب بقوة برية كبيرة، بينما أبحر جعفر باشا بأسطول كبير، ظهر على شواطىء بيروت وصيدا. وقام أحمد باشا بغارة على وادي التيم انطلقت من دمشق فنهبه وأحرق قراه. وقد قوبلت هذه الغارة من الأمير بدهشة، ولاقت عند ولده الأمير علي أقصى حدود الإستنكار، فانطلق من صفد على رأس قوة ليلاً وانقض على عساكر الأتراك بمؤازرة الشهابيين، بينما كان هؤلاء منهمكين ومنصرفين للنهب، فردهم على أعقابهم ولاحقهم لمدة ثلاث ساعات؛ غير أن الأمير علي قتل في هذه المعركة بطعنة رمح.

كان وقع هذه الخسارة شديد التأثير على الأمير فخرالدين إذ كان يعتبر علياً، منذ أمد بعيد، سنداً قوياً له، حتى أنه لشدة حزنه لم يكن يتمكن أحياناً من السيطرة على أعصابه في وقت بدت فيه المستجدات والحوادث المتعددة تحيط به من كل جانب وصوب. وكان، من جهته، جعفر باشا، قد نزل بجيوشه إلى البر وعسكر بالقرب من بيروت حيث انضم إليه دون إبطاء آل سيفا وأمراء اليمنيين. ومن سهل البقاع تقدم أحمد باشا والسر عسكر وهكذا ظهر للأمير فخرالدين أنه أصبح محاطاً بالأعداء من الجهتين اللتين يكون في متناول من يحتلهما تقرير مصير لبنان. وفي كل الأوقات كان احتلال الشاطىء وحده كافياً لشل حركة الجبل، والعمليات الأخيرة هذه برهنت بكثير من

الوضوح أن التأثير النفسي في مثل هذه الحالة يكون حاسماً. والأمير فخرالدين عندما عرف أن صيدا وبيروت أصبحتا في يد الأتراك داخله اليأس من النجاح، فجمع أفراد عائلته وأرسلهم إلى ملجأ يحميهم. أما هو نفسه فتوجه مباشرة إلى قلعة نيحا، إلى أن تتمخض الأحداث عن جديد أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

والمكان الذي اختاره لم يكن سوى تجويف طبيعي حفرته السنون في صخرة شديدة الإنحدار تبعد عن قرية نيحا مسافة ساعتين، ونيحا قرية شوفية، كان الأمير قد جعلها لعدة سنوات خلت، مركز دفاع لأنها في موقعها المميز وتكوينها الطبيعي تبدو وكأنها حصن لا يؤخذ، وكان قد بنى حائطاً أو سوراً من قاعها الخارجي إلى طنف المنحدر الذي يحتضن التجويف ويضم أخدوداً لا تزيد مساحته على مائة متر مربع مقسماً إلى غرف يتصل بعضها بالبعض الآخر، كان قد جرّت إليه المياه بواسطة قناة تحت الأرض من نبع بعيد، تمر فوق السطح بقساطل من الفخار لا تزال بقاياها المحطمة ظاهرة إلى يومنا هذا (١٨٥٠). ولما كان هذا الملجأ مذخراً فيه الكثير من المؤونة فقد بدا وكأن الأمير سيكون قادراً هنا على رد كل هجمات أخصامه عليه.

والجيوش التركية التي كانت معسكرة في السهول الفسيحة تحته، جعلت تتلهى بتصويب قنابلها إلى السور الذي كان ظاهراً فوقهم وكأنه مظلة أو غطاء. وبعد انقضاء ثلاثة شهور على هذا الحصار دون أن يأتي بفائدة تقدمت الجيوش إلى مرتفعات بين نيحا وجزين، لتراقب أي تحرك باتجاه معقل الأمير، آملة أن تنفذ ذخائره وما لديه من طعام فيستسلم. ولكن وفاء الفلاحين له جعلهم يتسللون إلى زيارته تحت جنح الظلام قادمين من السهول التي كانت الجيوش قد أخلتها، حاملين المأكولات إلى حضيض المنحدر حيث كانت السلال الخالية المدلاة من المرتفع بانتظارها لترفعها إلى المعقل مملوءة تزيل من نفسه كل شعور بالحيرة.

استمر الحصار سبعة شهور، وكان من المعقول أن يفك عنه، لولا خيانة راع دل الباشا على نبع الماء الذي كان الأمير قد سحبه إلى مخبئه. ولما كان الباشا غير قادر بالنسبة لطبيعة الأرض على تحويل مجرى النبع فقد أمر بأن تذبح الثيران والخرفان على حافتيه، فتمتزج بمياهه: الدماء والأوساخ، وتجري لتصب في خزانات الماء التي يستقي منها الأمير. كان هذا التدبير ناجحاً لأن الأمير عندما وجد نفسه مهدداً بالموت عطشاً تدلى بالحبال

بسرية تامة مع أمين سره (الكيخيا) وثلاثة من أبنائه وبعض أتباعه متسللاً في جنح الظلام إلى مغارة كبيرة في إحدى قرى جزين.

وقد تبعه الأتراك، وحاصروه في مخبئه هذا، وسدوا عليه المنافذ، غير أن لوازمه كانت تنقل إليه بصورة مؤقتة بواسطة أهل جزين عبر إخدود ضيق في ظاهر الأرض، في مكان مكشوف. ولكن بعد وقت غير قليل تمكن الجنود من حفر ثقب في قعر الكهف أو المغارة يوصلهم إليه، وإذ وجد الأمير نفسه، كنتيجة لهذا التدبير الخفي مجبراً على الإستسلام، سلّم نفسه مع كل من كان معه إلى أعدائه، وهؤلاء ساروا به دون أي إبطاء أو تلكؤ أو تأخير إلى جعفر باشا في صيدا حيث وُضع مع من في معيته على ظهر مركب أبحر بهم إلى القسطنطينية بوصفهم سجناء، بدا السلطان في وقت وصولهم مطمئناً لإلقاء القبض على مثل هذا العنصر القوي من أتباعه، ولكنه تلقى بعطف ما قدمه الأمير من مبررات لانتهاجه نهج المدافع عن نفسه، فمنحه منحة كريمة تكفيه ومرافقيه للعيش في منفاه ومعتزله في بحبوحة.

هذه الضربة التي أصابت حزب القيسية باعتقال الأمير فخرالدين، لم تقف عند هذا الحد، بل تلقاها كل من الموظفين الأتراك وحزب اليمنية بالإبتهاج والإرتياح. فالأمير يونس الذي ذهب إلى أحمد باشا في صيدا يطلب العفو لم يجد أمامه إلا الإعدام.

وفي سنة ١٦٣٤ سار الأمير علي علمالدين، الذي كان قد وُلي على لبنان، مدعوماً بفرقة من الجيش التركي إلى ديرالقمر دون إبطاء، وبعد تحطيم مساكن المعنيين وممتلكاتهم تقدم إلى عبيه وانقض على التنوخيين الأمراء، الذين كانوا مجتمعين هناك وباغتهم بالإحاطة بهم وبنذالة ذبح كل واحد منهم، مستأصلاً بهذا العمل الثأري الحاقد هذا الفرع من تلك العائلة الدرزية القوية.

ولم يبق للأمير ملحم، إبن الأمير يونس المعني، إلا أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من الثروة المبعثرة المحطمة للعائلة المعنية، فهذا الأمير كان قد وجد له ملجأ في بداية الأحداث، بين عربان طرباي، حيث استطاع أن يعيش بأمان. ولكن عندما تسربت إليه معلومات أن هؤلاء البدوان، خلافاً لما اشتهر عن هذا الشعب، كانوا قد بدأوا يتلقون من أحمد باشا وعوداً مقابل تسليمهم إياه، لجأ إلى الهرب سراً من بينهم، وبعد مواجهته كثيراً من المشقات والصعاب وصل إلى قرية عميّق الواقعة في إقليم البلان، من الشوف،

ودون أن يعرف أن سكانها كانوا من اليمنية عرّفهم بنفسه بجرأة وطلب منهم حمايته، وهؤلاء قبلوا طلبه إما شفقة عليه، أو طمعاً بمكافأته لهم، وتطوعوا للقيام بتنفيذ أوامره، وهو من جهته قام بإرسال الرسل إلى أصدقائه يعلمهم بعودته وتصميمه على البقاء معهم، وهكذا وجد نفسه بعد أيام قليلة على رأس مجموعة كبيرة من الأتباع، مسلحة تسليحاً قوياً، وتشتعل حماساً للإنتقام من أولئك الذين أساؤوا إليهم.

وسرعان ما قاد جيوشه إلى الشوف لملاقاة أحمد باشا والأمير علي علم الدين اللذين كانا يقومان متعاونين بفرض الغرامات في منطقة العرقوب الأولى. والمعركة حرت في سهل مجد المعوش، وفيها حالف الحظ الأمير ملحم. فالجيوش التركية اندحرت وتشرّدت والأمير علي علم الدين سارع ليطلب رضى بشير باشا الحاكم الجديد الذي عينته دمشق. غير أن هذا النصر الذي كان مفيداً ومُربحاً للأمير ملحم المعني، كان مميتاً وقاتلاً للأمير فخر الدين، بسبب ذبح أمين سر الباشا (الكيخيا) في الصدام الأخير، إذ عندما وصلت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية، مشفوعة بتقارير ملهبة للمشاعر بتزايد قوة الأمير ملحم ونفوذه مضافاً إلى هذا كونه حمل السلاح في وجه جيوش السلطان ثارت ثائرة السلطان ليصب غضبه على هذه العائلة المناهضة له. فأمر في ربيع سنة ١٦٣٥ بإعدام الأمير فخر الدين وولدين من أولاده الثلاثة، رمياً بالسهام، فلم ينج إلا الإبن الثالث الذي كان لا يزال قاصراً.

هكذا كانت نهاية هذا الأمير العربي الذي كان من المحتمل أن تحقق طموحاته وشجاعته، وجهده، لو ساعده الحظ، كل الأماني بازدهار بلاده وأمن أهلها. لأن عقله كان كبيراً ومنفتحاً، وحكمه كان عادلاً ومتسامحاً، وسيرته العامة كانت ترمي إلى اكتساب محبة وثقة شعبه، فخلال الوقت القصير الذي تولى فيه السلطة التامة، كانت تصاميمه ومخططاته تنحو إلى تقوية وتنمية ورعاية مصالح الشعب، وكان لديه شوق ولذة في تحقيق الإصلاح وهو نهج يمكن وصفه بصدق الوطنية. إن روح العدالة المرنة التي كان مصدرها بلا ريب ولا شك مقتضيات السياسة ومستلزماتها ولم تكن مرتكزة على أسس تعصب ديني، مما جعله ينطلق متحرراً حتى من أية إزدواجية أو تحيّز. وقد كانت كل الطوائف وخصوصاً المسيحية تجد الأمان والسّلامة في ظل حكمه.

ومع أنه مسلم محافظ فإن المجريات أجبرته على أن يهدف إلى الضغط على أبناء دينه، وبعمله هذا كان أداة فاعلة في كسر نير التبعية الذي كان يثقل كاهل المسيحيين، وعلى الأخص الفئة المارونية منهم في لبنان بقسوة، وهذا النهج في عمله السياسي كان ولا ريب أحد أسباب رفعته وسقوطه.

فباستخدامه لذكاء الموارنة وقوتهم العددية بنى حاجزاً قوياً لتجاوزات أخصامه الدائمين آل سيفا وبواسطتهم أيضاً تمكّن من بلوغ المقام الرفيع في لبنان الذي أطفأ فيه روح الحزبية، وضبط الهجمات المفتوحة المباشرة من السلطات الشرعية على البلاد؛ وإنه من الأمانة للتاريخ الإشارة إلى أن استخدامه للمسيحيين كان من عوامل هو مدين لها بنجاحه وتمكينه من ترسيخ قوته. والأمير في الوقت نفسه حدّد تطلعاته إلى شؤون محلية مستعملاً الوسائل التي كانت لديه في مركزه كزعيم إقطاعي، ناسياً، أو ربما لم يأخذ بعين الإعتبار أن كل خطوة يحققها في صالح المنطقة البعيدة عن تركيا التي أتيح له أن يضعها تحت حكمه وسلطانه كان يقابلها خطوة خاسرة في دواوين الحكم الذي كان دائماً يتطلع إلى الحصول منه على دعم وتأييد لتطلعاته.

ومراد الرابع مع كونه كان منهمكاً بحروب خارجية مكلفة، وفي ظاهر الأمر كان يشجع إنجازات فخر الدين أحد تابعيه متغاضياً عن أهداف سياسة قومه بتأثير الإغراءات المفرطة من أكداس الذهب التي كان يقدمها له فخر الدين قرباناً، فإن المستجدات سرعان ما برهنت بوضوح أن الحكومة التركية بما وسمت به من خداع ومراوغة، لم تكن تهدف إلا إلى إضفاء الألقاب والرتب عليه لتحول بينه والمطالبة بتحقيق مطامعه الإستقلالية، في وقت لم تكن فيه قادرة على مجابهته، ولكن مع العزم على العودة عليه عندما تسنح لها الفرص لتضعه في قفص الإتهام وتعاقبه.. إن الإمهال ونضج التفكير التركي، كانا ظاهرتين دائمتين في مختلف مراحل التاريخ التركي وتعتبران أمراً مفروغاً منه.

فاتخاذ الأمور بصبر، والتحفظ بسرية، وفوق كل ذلك المصانعة، أمور ثلاثة تكوّنت منها مبادىء السياسة التركية. والعرب الذين لم تكن لديهم الإمكانات لتضييق مدى قدرة الدهاء التركي على شل حيويتهم بالحيلة والتضليل والنفاق استطاعوا أن

يجملوا وصف سياسة أسيادهم بهذه العبارة البليغة المعبّرة من تعابيرهم التصويرية بقولهم « إن الحكومة التركية تستطيع أن تصيد الغزال على ظهر حمار مكسور الركبة نافر الحافر ».

الفهرس المفصل
- إعلام وأماكن -

حرف - أ -

حرف - ب -

حرف ـ ز ـ

حرف ـ س ـ

حرف ـ ش ـ

حرف ـ ص ـ

حرف ـ ط ـ

حرف - ن -

حرف - هـ -

حرف - و -

حرف - ي -

فهرس التواريخ

٨٥٠ - ١٨٥٢	٥٦، ٦٥، ٧٦، ٨٨	من السنوات التي أمضاها المؤلف في لبنان.
١٦٢٠	٦٣	عودة الأمير فخر الدين إلى لبنان من إيطاليا.
١٦٢٢		مهاجمة الأمير فخر الدين لآل سيفا.
١٦٢٣	٧٧	استعداد فخر الدين لغزو عكار.
١٦٢٦	٧٧	تعيين فخر الدين حاكماً من أورشليم إلى طرابلس ومن دمشق إلى البحر الميت.
١٦٢٧	٨٥	فرمان السلطان بتثبيت فخر الدين حاكماً على الجبل من حلب إلى أورشليم وتلقيبه سلطان البر.
١٦٣٢	٨٧	بدء التحرك التركي لاسقاط فخر الدين.
١٦٣٤	٨٩	زحف الأمير علي علم الدين على دير القمر وعبيه.
١٦٣٥	٩٠	إعدام الأمير فخر الدين وولدين من أولاده الثلاثة في القسطنطينية في ربيع تلك السنة رمياً بالنبال.
١٩٦٣	٣٠	تعديل قانون الأحوال الشخصية.
١٢٥٤	٥٢	سقوط الأيوبيين.

الفهـرس